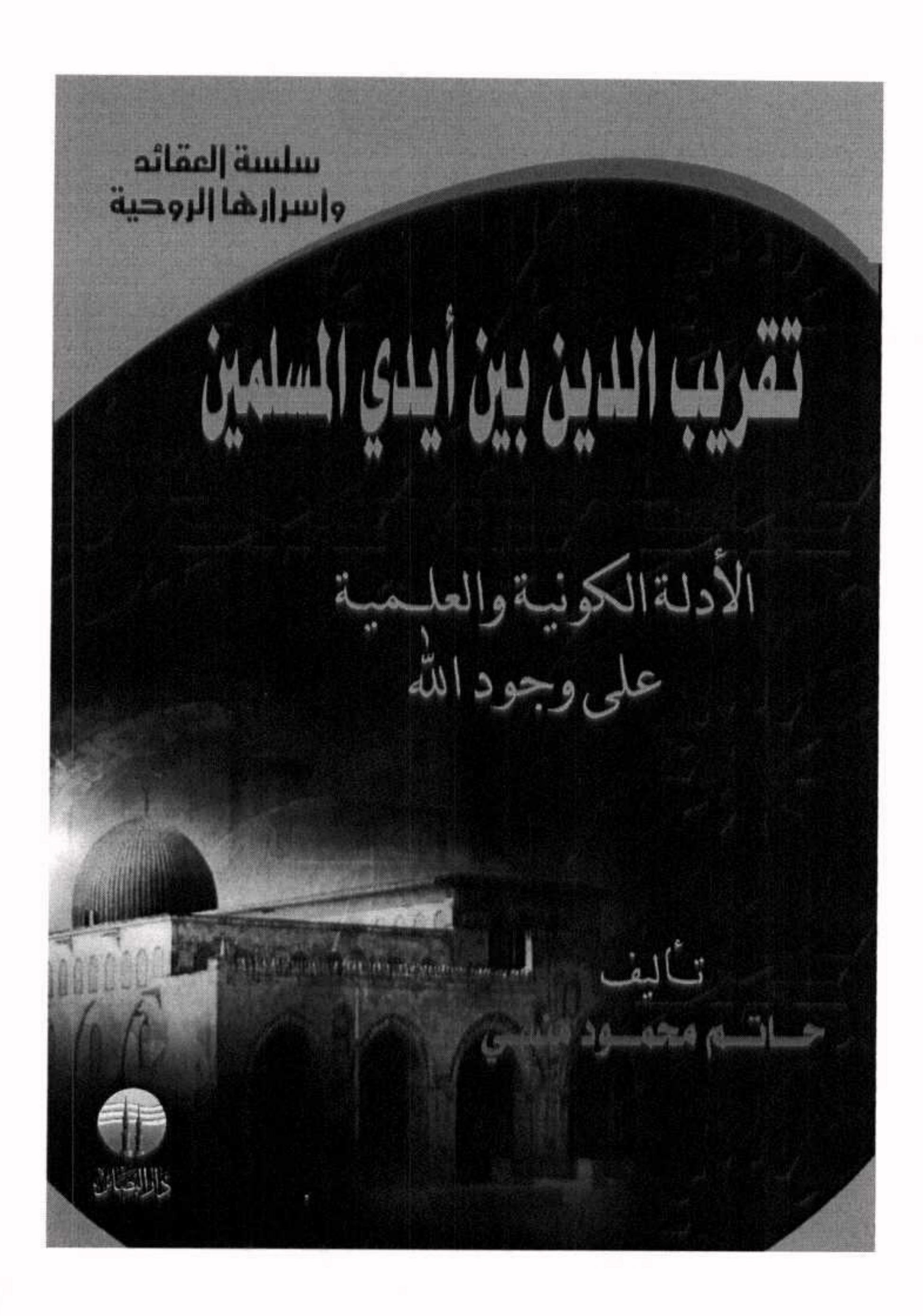

سلسة العقائد
واسرارها الروحية
تقريب الدين بين أيدي المسلمين
الأدلة الكونية والعلمية
على وجود الله
تأليف
حاتم محمود







مقدمة

الآيات القرآنية الكونية بلا شك هي مدار إثبات وجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيته... فماذا يقصد إذًا بالآيات القرآنية الكونية؟

يقصد بها: الآيات القرآنية المتعلقة بالكون المشهود الناطق بوحدانية الخالق الصانع المبدع المبهر سبحانه وتعالى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى، والذي خلق العالم العلوي بما اشتمل عليه من سموات وشموس وأقمار ونجوم وكواكب وأجرام ومجرات وسحب وأمطار ورياح وبَرَد وصواعق وبرق ورعد... إلخ، والذي خلق العالم السفلي من أرض وجبال وبحار وأنهار ونبات وحيوان وشجر ودواب... إلخ.

هذه الآيات الكونية تبهر كل من قرأ عنها بل كل من تفكر ونظر وتأمل فيها.

ألم تر إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما تَفكَّر في ملكوت السموات والأرض حينما رأى كوكبًا ثم رأى القمر ثم رأى الشمس، وفي كلٍّ يحسب ويظن أنه قد توصل إلى الخالق الصانع الإله الحق الذي لابد أن يذعن له كل مخلوق، ويصور لنا القرآن الكريم ذلك في سورة الأنعام قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

إن النظر والتأمل والتفكر في مخلوقات الله الكثيرة التي لا تحصى ولا تعد، في الأرض والسماء، في البرِّ البحر، في النبات الحيوان، بل في النفس الإنسانية وفي خارجها... في كل ذلك وأولئك، هو طريقنا وسبيلنا للتوصل إلى معرفة واجب الوجود، لقد نظر الخليل عليه السلام وغيره، ويجب علينا أيضًا أن نُعمِل النظر حتى نعلم ونعرف بذلك ربَّنَا... نعرف أنه الخالق المبدع المبهر المصور.

والدين يدعونا إلى النظر، ففي دستورنا الخالد- القرآن الكريم - الكثير والكثير مما يدعونا إلى التأمل والنظر... ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾[2].

وكذلك فالإسلام يدعونا إلى العلم ويحض عليه ويرفع العلماء، وينفرنا من الجهل...﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[3] و﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[4].

---

(١) الأنعام: ٧٥-٧٩.

(٢) الأنعام: ١١.

(٣) الزمر: ٩.

(٤) فاطر: ٢٨.

والدين الإسلامي وحده من بين الأديان جميعًا هو الذي يدعو إلى العلم؛ فهو دين متكامل يسمو بمن يدين به ويرتفع بمن اهتدى إليه ويعز من تمسك به، فهو دين العزة والكرامة وأول ما يبدؤك من عزة الإسلام أنه ليس دين صومعة وعزلة ولكنه دين حكم ودولة، الحكم في دولته لله وقانونها شرع الله، ليس للإنسان فيه إلا الفهم والفقه وحسن التطبيق، فالقوانين الوضعية منكرة في الإسلام، وكل هذه القوانين المستمدة من الغرب أو من قدماء اليونان والرومان مردودة في الإسلام ما خالفت أحكام الله، وما حاجة المسلمين بل ما حاجة الناس إلى حكم إن خالف حكم الله، فهو خطأ وَقَى الله الناس شره بالشرع، وإن وافق حكم الله اتفاقًا كان التماسه في غير الشرع إثمًا للمسلم وذلة له؛ كان إثمًا لأنه انصراف عن شرع الله وسوء ظن به، وافتراض نقص فيه يلتمس سده في غيره؛ وكان ذلة لأن المسلم حين يحتكم إلى غير دين الله ويرضى بحكم من يعلم أنه لا يؤمن بما أنزل الله فقد خلع عن نفسه رداء العزة الذي أضفاه الله عليه حين أنزل له شرعًا جمع له فيه الخير والصواب، وحرره به من الخضوع في قول أو عمل أو نية لغير الله... هذا الاستسلام لله وحده هو أصل عز الفرد المسلم، لأنه ينزع من صدره كل خشية ورهبة لغير الله؛ فهو إذا أطاع الحاكم المسلم إنما يشكره طاعة لله، الذي أمره بشكر من يحسن إليه... وهلم جرًّا.

والمسلم مأمور بألا يسمع لمخلوق ولا يطيعه فيما فيه معصية فهو عبد لله وحده قد تحرر بالإسلام من العبودية والخضوع لكل ما سواه... فأعجب معي

أخي القارئ من أمة دينها فيه العزة والكرامة ثم تهمله بالتخلف والجهل والرجعية والتقليد الأعمى! فهل يليق ذلك بأمة أول ما نزل عليها في القرآن الكريم: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (1)؟

وها هو الكون الفسيح الرحب يلفت الله تعالى أنظارنا إلى ما وضع فيه من آيات باهرات واضحات تنطق بوجوده سبحانه وتشهد بعظمته عز وجل وتدل دلالة واضحة على أنه الإله الحق الخالق، فكل آيات الكون ناطقة بوحدانيته تعالى وما العلم إلا كاشف لقدرة الله في الكون.

لقد أَلَحَّ القرآن الكريم على أن يُعْمِل الإنسان عقله ويحرك قلبه، وكذلك يلفتنا إلى آيات الكون الذي يزخر بالدلائل على وجود الله سبحانه فمنها: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(2)، ومنها: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾(3)، ومنها: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(4).

---

(1) العلق: ١-٥.

(2) سورة يونس آية: ١٠١.

(3) آل عمران: ١٩١.

(4) الذاريات: ٢٠-٢١.

وهنا يتبادر سؤال هام ألا وهو: لماذا يدعونا القرآن إلى النظر والتأمل والتفكر في خلق الله؟

والجواب عن ذلك:

إن من عرض عليك صنعته وحثك على فحصها والتنقيب فيها للتعرف على متانتها وكمالها ما فعل ذلك إلا لأنه عالم بسلامة ما يعرض عليك من صنعته وإتقانها، وأنه ما دعا إلى ما دعا إليه إلا لإفضائه يقينًا إلى ما يراد إثباته من الحقائق الربانية؛ إذ لا يمكن بحال أن يتناقض ما يصل إليه النظر الصحيح في الكون من معارف وحقائق وما جاء به كتاب الله تعالى؛ لأن القرآن الكريم كلام الله تعالى وهو صنعته والكون خلقه وصنعته كذلك ،ومن خلق أخبرنا بما خلق: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[2].

هذا الكون ووجه دلالته على وجود الله تعالى:

لهذا الكون أوجه دلالة يدل بها على الصانع الحكيم أهم هذه الأوجه:

الحدوث والتقدير، والتناسق والتنوع، والتفرد والتسخير.

وباختصار وبصريح العبارة:

---

(١) الملك: ١٤.

(٢) النمل: ٨٨.

هذا الكون الفسيح بما فيه من شموس وأقمار ونجوم في السماء لا تحصى، وجبال وأنهار وحيوان ونبات يملأ الأرض، وإنسان له سمع وبصر وعقل يفكر وقلب ينبض... هذه الآثار وغيرها التي تظهر لنا والتي لا تظهر لنا ألا تثير في أنفسنا هذا التساؤل:

من خلق ذلك؟ ولماذا خلقه؟ وماذا يريد بخلقه هذا؟

إن هذا وغيره لمما يدل على أنه خالق حكيم وصانع ماهر أبدع تلك المخلوقات، فسبحانه من إله عظيم...

وفي هذه الصفحات القليلة سترى أخي القارئ الكريم ما يملأ قلبك إيمانًا بخالقك... سترى آيات مبهرات تدلك على وجود الخالق العظيم الواحد الأحد...

تلك الآيات موجودة في نفسك وفي الحيوان وفي النبات وفي الجماد وفي البحار والأنهار، بل في السماء والأرض وفي كل خلق من مخلوقات الله سبحانه.

وفي كل شيء له آية　　تدل على أنه الواحد

الكون كله- صامته وناطقه، ومتحركه وساكنه- مقرٌّ ومصدق ومعترف ومؤمن وناطق بوجود الله تعالى، قال جل وعلا: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

(١) سورة إبراهيم آية: ١٠.

قال ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «كيف يُطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء... ؟!»، وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وأخيرًا نقول: إن اعتقادنا بقدرة وعظمة الخالق المُبدع يقوم علىٰ الإيمان.. الإيمان الصادق.. وقد آمن كثير من الناس، فلما ذاقوا حلاوة الإيمان وجدوه في أنفسهم وفي قلوبهم وفي وجدانهم وفي كل ما هو حولهم من مخلوقات ومن ظواهر كونية غاية في الإعجاز الذي لا يَقْدِرُ أيّ عقل بشري علىٰ إدراك حكمته؛ ذلك لأن هذا العالم الذي نعيش فيه والزاخر بالروائع قد بلغ من الدقة والإتقان والتوازن حدًّا لا يوصف من الإعجاز والتعقيد، وسواء أردنا أم أبينا فإن جميع ما في هذا الكون يشهد بوجود الله تعالىٰ ويُدَلِّلُ علىٰ قُدرته وعظمته وسلطانه، ونحن عندما نشاهد ونتابع سير هذا الكون فإننا لا نفعل أكثر من متابعة ومشاهدة آثار أيادي الخالق وعظمته وجلاله، وقد ساعدتنا العلوم الحديثة والاكتشافات في عصرنا الحالي علىٰ زيادة فهم وتقدير بعض ظواهر هذا الكون المعقد بما يتفق وما جاء في القرآن الكريم علىٰ لسان رسولنا محمد صلىٰ الله عليه وسلم الذي نزل عليه قبل أربعة عشر قرنًا وهو النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب.. وكما قال له المولىٰ عز وجل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا ... يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1] بلىٰ يا ربنا كفىٰ بك أنك علىٰ كل شيء شهيد.

سبحانك أنت الخالق المُبدع ما أعظم شأنك وما أجل قدرك.. ولكن أكثر الناس لا يُدركون ولا يعرفون مقدار عظمتك وجلالك.. وبرغم كل ذلك فيك ومنك من الجبروت والقوة والسلطان والعظمة والكبرياء؛ فإنك سبحانك كتبت علىٰ نفسك الرحمة.. وتتقرب إلينا تُريد سعادتنا في الدارين الدنيا والآخرة.. وكلما ضللنا في الأرض خشيت علينا نارك وعذابك فأرسلت إلينا رُسُلكَ ليهدونا وَيرُدُّونا إلىٰ طريق الرشاد والفلاح.. ولكننا أحيانًا نعصاك ونجحد نعمائك علينا.. فتشملنا بحلمك علينا وتُمْهلُنَا لكي نتوب فتتوب علينا لأنك تشفق علينا من عذابك.. ونُخطئ ونُقَصّرُ في حقك علينا ثم نستغفرك فنجدك غفورًا رحيمًا.. وأنت سبحانك لا تريدُ مِنَّا مالًا ولا رزقًا.. فأنت سبحانك الرزاق الكريم.. وأنت سبحانك الذي أنعمت علينا بالرزق وبالصحة والعافية وسَخَّرتَ لنا كل شيء في السمٰوات والأرض لخدمتنا وراحتنا وأسبغت علينا نِعمكَ ظاهرةً وباطنةً وإنْ نَعدُّ عليك نعمك لا نُحصيها، لأن الإنسان منا كما وصفتنا في كتابك ظلوم كفار.. كفار بنعمك السابغة.. ورغم ذلك فإنك من واسع رحمتك علينا وعلىٰ قدر عظمتك وكبريائك وجلالك تتقرب منا حتىٰ إذا تاب العبد منا من ذنوبه واستغفرك.. أسرعت سبحانك تفرح بتوبتنا وتغفر لنا ما كان من ذنوبنا حتىٰ وإن كانت مثل زَبد البحر، وكما جاء في حديث رسولك

---

(١) فصلت: ٥٣.

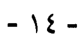
وحبيبك محمد صلواتك وسلامك عليه: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان علىٰ راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتىٰ شجرةً فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته - فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شِدّةِ الفرح».

وعنه ﷺ فيما يَرْوِيهِ عن ربه عز وجل أنه قال: «**أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني.. فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خيرًا منهم.. وإذا تقرب إِلَيَّ شبرًا تقرّبت إليه ذراعًا.. وإذا تقرّب إِلَيَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا.. وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة**».

سبحانك يا ربنا.. يا من تقرّبت منا برحمائك.. وتودّدت إلينا بحنانك.. وتَحبّبت إلينا بنعمائك.. وتعرفت إلينا بآلائك.. وَجُدْتَ علينا بعطائك.. ونحن نجحد تقربك وتودّدك إلينا بعصياننك.. فما أظلمنا لأنفسنا في معرفة قدر عَلْيَائِكْ.. وما أكفرنا بنعمائك وآلائك.. وقست قلوبنا فلم تخشع لعظمتك وجلالك.. فهي كالحجارةِ أو أشد قسوةً.. وإن من الحجارة لَمَا يتفجرُ منه الأنهار.. وإن منها لَمَا يَشَّقَقُ فيخرج منه الماء.. وإن منها لَمَا يهبط من خشيتك سبحانك.

ونقول في الختام: ربنا ألن قلوبنا لتخشع لجلالك.. والحمد لله رب العالمين ونصلي ونسلم علىٰ الهادي محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.





العالم العلوى

تمهيد

من الأدلة على وجود الله الخلق:

هذا هو أول الأدلة المادية الكونية على وجود الله سبحانه؛ وذلك لكونه ملموسًا نراه أمامنا ليلًا ونهارًا فنحن نرى السماء من فوقنا سقفًا للأرض ولكن دون أعمدة ترفعها بل هي معلقة تمسكها قدرة الخالق والصانع: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[1]. فهذه السماء بما فيها من شموس ساطعات، وأقمار نيرات، ونجوم سابحات، وشهب ونيازك ومجرات، وهناك ما لا نراه لكن الله الذي خلقه يراه، فلنتأمل ولننظر كيف تدل السماء بما فيها على وجود الخالق العظيم.

وقبل أن نخوض في كل ما في العالم العلوي دعونا نسأل: ماذا يقول علماء الفلك في سعة الكون؟

إن الأرض ليست إلا فردًا من أفراد الأسرة الشمسية، والأسرة الشمسية ليست إلا فردًا من أفراد المجموعة المجرية، والمجموعة المجرية التي قُدِّر عددها بما يزيد على (١٠٠) مليون مجرة ليست إلا فردًا من أفراد المدن النجومية التي في الفضاء، ثم إن هناك نيازك وشهبًا ومذنبات وأقمارًا، ولو نظرنا من خلال المناظير

---

(١) فاطر: ٤١.

القوية إلى مجرتنا التي يطلق عليها اسم «درب التبانة» لرأينا العجب، أعدادًا هائلة من النجوم قدرها بعض العلماء بحوالي (٤٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) أربعين ألف مليون نجم، وقدر في مجرة واحدة بأكثر من (٢٠٠) ألف مليون نجم.

أليس ذلك مما يجعل كيانك يهتز وينتفض خشية من جلال الصانع المبدع؟!

﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[1].

يقول العالم الفلكي «جيمس جينز»:

«عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ كياني يهتز من الجلال الإلهي»!

- وماذا عن أحجام هذه النجوم؟

الشمس وإن تراءت لنا نجمًا عظيمًا فما ذلك إلا لقربها منا، وأصغر النجوم التي اكتشفت للآن نجم (فان مانن) لو جئنا بمليون من مثله لأمكننا أن نزج به في عين الشمس وتقول الشمس هل من مزيد؟ بيد أن ثمة نجومًا «كمنكب الجوزاء» بلغت من العظم قدرًا يمكننا معه أن نزج فيها بملايين كثيرة من مثل شمسنا في الحجم وزيادة، وهناك نجم يسع المجموعة الشمسية كلها، نصف قطره(٢١٠) مليون ميل.

هذا خلق الله ...وهذا صنعه...فتبارك الله أحسن الخالقين...

- وماذا عن الأبعاد والمسافات بين هذه النجوم؟

إن الشمس تبعد عنا حوالي (٩٣) مليون ميل، فهي أبعد عنا من القمر بحوالي (٤٠٠) مرة، وإذا احتجنا إلى أن نقيس أبعاد النجوم الأخرى فلابد لنا من أن نستعمل سرعة

---

(١) آل عمران: ١٩١.

الضوء- وهي وحدة للقياس- والضوء يقطع في الثانية الواحدة حوالي (١٨٦٠٠٠) ميلًا والكوكب "بلوتو" يعد من أبعد الكواكب السيارة في المجموعة الشمسية، ويستغرق الضوء المنبعث منه إلينا ما بين أربع ساعات وخمس ساعات، مع أن الضوء الآتي من أقرب النجوم يستغرق بين أربع سنوات ضوئية وخمس، وأقصى ما توصلت إليه المراصد وآلات التصوير الحساسة المتناهية في الدقة عن مجموعات من النجوم تبعد عنا حوالي ألفي مليون سنة ضوئية... هذا بالنسبة للنجوم، أما بالنسبة للفضاء الذي تسبح فيه تلك النجوم فقد قال العلماء:

لو فتتت النجوم جميعها التي في السماء ونشرت في الفضاء فإنه يصير لكل (٤٠٠٠) قدم ذرة واحدة!!

وما لنا في ذلك إلا أن نتدبر قول الحق سبحانه: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1] فسبحان من هذا ملكه وهذه صنعته، إن هذه البلايين من النجوم الموزعة توزيعًا منتظمًا في هذا الكون؛ وتحركاتها وفق قانون معلوم بحيث لا يصطدم بعضها ببعض لَبرهان ساطع على وجود الله وهذا ما لفت القرآنُ الأنظارَ إليه، يقول تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[2].

* * *

---

(١) الذاريات: ٤٧.

(٢) الواقعة: ٧٥-٧٦.

الفصل الأول: النجوم

التأمل في النجوم علاج للهموم، ففيه الدواء للمحزون والراحة للمكلوم، فما هذا الكوكب بكل خيره وشره سوى جرم صغير يدور حول نجم متوسط من بلايين بلايين النجوم التي توجد في ألف بليون مجرة على الأقل تضمها بعض صفحات كتاب الله المنظور.

أقول إن من ينظر إلى السماء في ليلة ظلماء تطالعه النجوم فيسحره جمالها ويأسره نظامها ويظل مع السهارى حيارى، فهذه نجمة فريدة تتلألأ هناك كأنها نبع الحب الصافي، وتلك ترسل شعاعًا هو حبل الوداد الدافي، وهاتان النجمتان الشاردتان قد هربتا من الزحام تتناجيان وتُسرَّان لبعضهما ما تُسرَّان، وهذه التجمعات النجمية- البروج- وقد رَصَّعت صفحة السماء كما تُرصَّع عقود الماس غِيد الحسان، وصدق ربنا إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾[1].

من أجرام السماء وأقربها إلى أرضنا منظومتنا الشمسية. لكن هذه المنظومة لا تشغل في الفضاء الكوني الرهيب إلا ركنًا لا نستطيع وصفه لضآلته فلو قلنا واحد على بليون لكنا مسرفين بل ومفرطين؛ لأن ما حولنا من شموس أو نجوم يعد بالبلايين بل ببلايين البلايين، وما شمسنا إلا نقطة صغيرة في ذلك الخضم اللانهائي.

(١) سورة الحجر آية: ١٦.

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1]، ونحن نريد أن نعرف الكثير عن هذه النجوم، أبعادها ومواقعها وأحجامها وكتلتها وكل ما يتعلق بها.

أبعاد النجوم: . .

لعلكم تعجبون من أن شمسنا ليست في الكون إلا ذرة في ركنٍ قصيٍّ من فضاءٍ سحيق، وتتساءلون عن الوسائل التي عرف بها الفلكيون أبعاد ما يرون في السماء من نجوم.

لقد كان قياس المسافات على سطح الأرض شيئًا ملحًّا، فهل تذكرون ما استخدم الإنسان لذلك؟

لقد استخدم البوصة والقدم والياردة. ثم استخدم بعد ذلك الميل والكيلو متر (٠,٦ ميل). كل هذه المقاييس وإن صحت لقيام المسافات على سطح الأرض فهي لا تصح لقياس الأبعاد السحيقة للنجوم، فلا الميل ينفع ولا الكيلو ولا غيرهما؛ لأننا إن قلنا إن نجمًا معينًا يبعد عنا مسافة كذا ميل أو كذا كيلو لاضطررنا لاستعمال عدد مهول من الأصفار أمام هذا الرقم مما يجعل تعبيرنا غير مفهوم وغير عملي.

وإذن فماذا ابتكر العلماء من وحدات لقياس أبعاد النجوم؟ ابتكروا السنة الضوئية. وهي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة.

---

(١) آل عمران: ١٩١.

سرعة الضوء = ١٨٦٠٠٠ ميل/ث

المسافة = السرعة×الزمن

=١٨٦٠٠٠× ٣٦٥ يومًا ×٢٤ ساعة×٦٠ دقيقة×٦٠ ثانية.

=٦,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ميل تقريبًا.

٦×١٢١٠ أي ٦ مليون مليون ميل تقريبًا.

معنى هذا أن السنة الضوئية= ٦ تريليون ميل تقريبًا.

وهي في ظاهرها وحدة لقيام الزمن ولكنها في الحقيقة وحدة لقياس المسافة.

وحتى السنة الضوئية هي وحدة صغيرة نسبيًّا، ولذا هناك ما يسمى الفرسخ الفلكي» وهو= ٣,٢٥ سنة ضوئية.

مواقع النجوم:

فكرة عن مواقع بعض النجوم بالنسبة لنا.

أقرب النجوم إلينا. الشمس: وهي تبعد عنا (٩٣) مليون ميل (الوحدة الفلكية للمسافة) وبالقياسات الضوئية فهي تبعد عنا $\frac{1}{3}$ ٨ دقيقة ضوئية.

أقرب نجم لشمسنا ألفا قنطورس، وهو يبعد عنا ٤,٤ سنة ضوئية فقط.

مسافة أقرب نجم لنا (بعد الشمس)= ٤,٤×٦×١٢١٠ =

٢٦,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ أي ٢٦ تريليون ميل تقريبًا.

وليس علينا أن نستكثر هذه الأرقام ونستهول أمرها؛، لأن بعض النجوم السحيقة تبعد عنا آلاف بل ملايين السنين الضوئية، وبعضها لم يصلنا ضوؤه بعد.

فالله جل شأنه القائل: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1].

وعلى سبيل المثال ولبيان عظمة مواقع النجوم التي أقسم بها الله تعالى فإن:

نجم الشعرى اليمانية يبعد عنا (٩) سنوات ضوئية، أي ٥٤× ١٢١٠ ميلًا.

ونجم الطائر يبعد عنا (١٤,٥) سنة ضوئية، أي ٨٧×١٢١٠ ميلًا.

ونجم النسر يبعد عنا (٣٠) سنة ضوئية، أي ١٨× ١٣١٠ ميلًا.

ونجم السِّماك يبعد عنا (٥٠) سنة ضوئية، أي ٣× ١٤١٠ ميلًا.

ونجم قلب العقرب يبعد عنا (٢٧٠) سنة ضوئية، أي ١٦×١٤١٠ ميلًا.

والنجم القطبي يبعد عنا (٤٠٠) سنة ضوئية، أي (٢٤×١٠) ١٤ ميلًا.

ونجم سهيل، أبعد النجوم اللامعة عنا (٦٥٠) سنة ضوئية، أي ٤×١٥١٠ ميلًا تقريبًا.

ونجم منكب الجوزاء يبعد عنا (١٦٠٠) سنة ضوئية، أي (١×١٠) ١٦ ميلًا تقريبًا. (واحد وعن يمينه (١٦) صفرًا، أي عشرة آلاف تريليون ميل) جل جلال الله وجلت قدرته... لقد فقدت الأرقام معناها في عقولنا

---

(١) الواقعة: ٧٥-٧٦.

ولكن هل بإمكاننا رؤية هذه النجوم رغم أبعادها الشاسعة؟

رغم تلك الأبعاد فإن أعيننا المجردة يمكنها رؤية تلك النجوم من خلال الرسائل (الضوء) التي ترسلها إلينا. وقد يمتد بعدنا أكثر حتى نرى سديمًا حلزونيًّا يحتوي على بلايين النجوم يشبه مجرتنا هو سديم المرأة المسلسلة ويبعد عنا (٢ ,٢) مليون سنة ضوئية- إلى هذا الحد يمكن أن ترى العين المجردة أما أبعد من هذا فلابد من الاستعانة بالمراقب القوية الحديثة التي أتاحت للعلماء إمكانية دراسة نجوم على بعد (٢ ,١) بليون سنة ضوئية.

ولكن كيف تمكن العلماء من معرفة مواقع النجوم- أي تحديد أبعادها-؟! لقد تمكن العلماء من ذلك بعدة طرق، من أبسطها:

الطريقة الأولى: الرصد من مكانين مختلفين:

وفيها يتم رصد النجم من مكانين مختلفين على الأرض في اللحظة نفسها على أن تكون المسافة بين المكانين معلومة بدقة واقعة على نفس خط العرض تقريبًا. فإذا تم الرصد على هذه الصورة، كان لدينا مثلث قاعدته المسافة المعلومة بين المكانين ورأسه عند النجم وزاويتا القاعدة معلومتان، مما يمكننا من حساب البعد بسهولة.

الطريقة الثانية: الرصد في زمنين مختلفين:

وهي أيسر في الرصد وإن كانت أصعب في الحساب، حيث يتم رصد النجم في مدينة ما ثم معاودة الرصد بعد فترة زمنية تقدر بنحو ثلاث أو أربع ساعات،

وكأننا استعضنا بذلك عن الرصد في مدينة أخرى اعتمادًا على أن المدينة الأولى سوف تحتل في الفضاء مكانًا آخر بعد الفترة الزمنية، نظرًا لدوران الأرض حول محورها، ويمكن حساب المسافة بين موقعي الرصد في هذه الحالة اعتمادًا على أن أي نقطة من سطح الأرض ترسم خلال اليوم دائرة محيطها= محيط الأرض× جيب تمام خط العرض. فمدينة القاهرة مثلًا تكمل دورة محيطها نحو خمسة وثلاثين ألف كيلو مترًا يوميًّا.

سبحان الله! مدينة القاهرة التي تحسبها ساكنة تنتقل من «مكانها» يوميًّا كل هذه المسافة، تباركت يا رب ما أعظم قدرتك!

الطريقة الثالثة: قياس اللمعانين الظاهري والمطلق للنجم:

ومن ثم حساب بُعد النجم عنا بمعادلة خاصة، وقد تم الاستعانة بالنجوم التي يرتبط لمعانها المطلق بمدة نبضها للحصول على علامة تمكننا من تحديد بعد النجم بمجرد التعرف على مدة نبضه.

أحجام النجوم:

هذا عن مواقع النجوم فماذا عن أحجامها؟

هي كثيرة، منها:

نجم إبط الجوزاء يبلغ قدر حجم شمسنا (٢٥) مليون مرة.

ونجم القيطس يبلغ قدر حجم شمسنا (٣٠) مليون مرة.

ومعظم النجوم الأُخر من الكبر بمكان بحيث يتسع بعضها لمليون شمس في داخله، ولك أن تتخيل مدى فظاعة حجم نجم مثل نجم بيت الجوزاء بالنسبة لشمسنا، فالشمس بالنسبة له تبدو كالقطرة في المحيط، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[1].

إن الألسن لتعجز حقًّا عن وصف تلك القدرة الإلهية، وعلينا نحن معشر أهل الأرض أن نتواضع ونتواضع حتى نذوب تواضعًا لله، فالله دائمًا أكبر، ودائمًا ما نردد هذا النداء الغالي، نردده بألسننا ولا تحسه أفئدتنا. فشمسنا أكبر من أرضنا بأكثر من مليون مرة، وهناك نجوم أكبر من شمسنا (٣٠) مليون مرة، فكم تكون أرضنا بالنسبة لها ونحن نتوهم أن أرضنا تسع الدنيا بأكملها!! اللهم لطفك.

كتل النجوم:

وللنجوم كتل عظيمة قد تجل عن الوصف.

كتلة شمسنا تقدر بنحو (٣٣٣) ألف أرض (مثل أرضنا).

وكتلة نجم القيطس تقدر بنحو (٣٠) مليون شمس (مثل شمسنا).

ولنتواضع ولنتوارى أكثر وأكثر، فشمسنا أثقل من أرضنا مئات الألوف من المرات، وهناك شموس أثقل من شمسنا ملايين المرات!.

---

(١) الأنعام: ٩١.

ولكن كيف أمكن للعلماء تقدير كتلة الشمس مثلًا؟

أمكن ذلك رياضيًّا، بمعلومية وزن الأرض (٦ آلاف مليون مليون مليون طن)، ومتوسط البعد بين الأرض والشمس (٩٣ مليون ميل).

قوة النجوم: ...

إن قوة النجوم كثيرة منها أن:

القدرة الشمعية لشمسنا تعادل ٣×١٠^٢٧ شمعة (أي ثلاثة آلاف تريليون تريليون شمعة).

والقدرة الشمعية لنجم الشعرى اليمانية أكبر من القدرة الشمعية لشمسنا (٢٦) مرة. وليس هذا النجم- رغم أنه ألمع نجوم السماء- أكبرها في القدرة الشمعية، فكثير من النجوم قدرتها الشمعية أكبر منه مئات بل آلاف بل مئات الآلاف من المرات!

والقدرة الشمعية لنجم العيوق أو العنزة أكبر من القدرة الشمعية لشمسنا (١٨٥) مرة.

والقدرة الشمعية لنجم قلب العقرب أكبر من القدرة الشمعية لشمسنا (٤٠٠٠) مرة!.

والقدرة الشمعية لنجم الرِّجل أكبر من القدرة الشمعية لشمسنا (١٥٠٠٠) مرة.

لنزداد تواضعًا أكثر فشمسنا التي جعلها الله مصدر الحياة على أرضنا ليست في الكون سوى نجم خافت تفوقه بعض النجوم تألقًا خمس عشرة ألف مرة!! نسجد لك يا رب تضرعًا وخيفة، ونعترف بجبروتك ونسترحمك فأنت القوي ونحن الضعفاء...

وعلى النقيض مما تقدم، فهناك الكثير من نجوم السماء خافتة الضوء إلى حد اكتشافه بصعوبة وخاصة إذا كان مكانه قرب نجم لامع آخر، مثل النجم المجاور لنجم الشعرى اليمانية (ألمع نجوم السماء)- قدرته الشمعية تقل عن قدرة شمسنا (٤٠٠) مرة، كما أن هناك نجومًا أخرى أخفت من هذا النجم مائة مرة. ويطلق الفلكيون على النجوم كبار الحجم فائقي القدرة الشمعية اسم «العماليق»، أما النجوم صغار الحجم متواضعي القدرة الشمعية فيسمونها «الأقزام».

* * *

الفصل الثاني: الشمس

تكلمنا فيما سبق عن النجوم.. فماذا عن الشمس؟.

التعريف بالشمس:

شمسنا نجم متوسط الحجم وهي تمثل أروع آيات الخالق في السماء بالنسبة لنا أهل الأرض، كما أنها أشد أهمية وأعظم نفعًا لنا وهي بمثابة كتلة من الغازات الملتهبة في مركز منظومتنا، وهي تدعونا للتعرف عليها:

- **شكلها الظاهري**: قرص وشكلها الحقيقي: سحابة غير منظمة الشكل.
- **بعدها عن الأرض**: ١٤٩,٥٠٠,٠٠٠ كيلو مترًا.
- **حجمها**: ١,٣٢٠,٠٠٠ مرة قدر كتلة الأرض.
- **طول قطرها**: ١,٤ مليون كيلو مترًا.
- **قدر حرارتها**:

١ – على السطح ٦٠٠٠ درجة مئوية.

٢ – في المركز ٢٠ مليون درجة مئوية.

- **تركيبها**: ٧٠٪ هيدروجين ٢٨٪ هيليوم ٢٪ عناصر متبخرة.
- **كثافتها**:

١ – الطبقات الخارجية: أقل من واحد على المليون من كثافة الماء.

٢ – الطبقات الداخلية: مائة مرة قدر كثافة الماء.

- تتبع: مجرة درب التبانة.

- **كواكب المجموعة الشمسية:**

عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون، بلوتو، بروسوبينا ويتبع الشمس من الأقمار أكثر من ستين قمرًا.

تكوير الشمس..

يتوقع العلماء أن الشمس في المستقبل سوف تقترب من نهايتها، عندما يوشك الهيدروجين على النفاد ويزداد تركيز الهيليوم في قلب الشمس وعندئذ يقف التفاعل النووي مؤقتًا في قلب الشمس فتتغلب الجاذبية فورًا فينكمش هذا القلب ويتكور وينقبض انقباضًا هائلًا مروعًا فترتفع بذلك درجة حرارة باطن الشمس إلى مائة مليون درجة مئوية: وتحدث تفاعلات نووية متقدمة يندمج الهيليوم فيها إلى عناصر أثقل تصل إلى النحاس والحديد،... وبسبب الارتفاع الشديد لدرجة الحرارة في قلب الشمس المنقبض تتمدد كرة الشمس الحالية فتزداد بذلك مساحة سطحها الخارجي بحيث يبتلع كوكبي عطار والزهرة باعتبارهما أقرب الكواكب للشمس... بل ويصل سطحها الخارجي إلى أفق الغلاف الجوي للأرض... أخي القارئ الحبيب أتدري ماذا يقول القرآن الكريم

في ذلك؟ اقرأ إن شئت قول الحق سبحانه: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ﴾[1].

... أتدري ماذا يحدث عندما تزداد درجة حرارة باطن الشمس؟ وعندما يصل سطحها الخارجي إلى أفق الغلاف الجوي للأرض؟ إن الشمس تبتلع القمر وتلعق جو الأرض بغازاتها المشتعلة، فتصبح الشمس بذلك عملاقًا أحمر، وعندئذ تكون حرارتها كافية لخطف الأبصار ويتساءل الناس كيف السبيل للهروب من هذا الوضع العصيب؟

نعم وضع عصيب جدًّا!.. فلتسمع للقرآن الكريم وهو يصف ذلك ويصوره لنا بدقة متناهية: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾[2].. عندئذٍ تهبط درجة حرارة الشمس إلى نحو (٣٠٠٠) درجة مئوية بعد أن كانت (٦٠٠٠) درجة مئوية فيتغير لونها إلى الأحمر، وذلك موجود في كتاب ربنا يقول الحق سبحانه: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝ ﴾[3] أي إذا انشقت السماء فكانت حمراء كالزيت المحترق.

---

(١) الدخان: ١٠-١١.

(٢) القيامة: ٧-١٠.

(٣) الرحمن: ٣٧.

نهاية الشمس ..

وهنا تنتهي الشمس العملاقة بالموت؛ حيث تقف تفاعلاتها النووية فتسيطر الجاذبية على جميع أجزائها في القلب والسطح فتتكور إلى أن تصل إلى قزم أبيض حيث يصغر حجمها آلاف المرات بالنسبة لحجمها الحالي وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾[1].

هذا الذي يثبته العلم الحديث من تكور الشمس وانتشار الدخان في السماء هو ما أخبر عنه القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان ألا يدل ذلك على وجود الله؟ إن ذلك لمن أكبر الأدلة على وجود الله سبحانه فَمَنْ غَيرُ الله يستطيع أن يفجر الشمس ويكورها، ومن قبل ذلك يشق القمر نصفين؟ إن ذلك من العظمة بحيث لا يستطيع أحد إلا الله تعالى فعله.

حرارة قرص الشمس وما حوله: ..

الشمس محيط هائل وفرن ثائر ومسرح زاخر بأشد أنواع الدوامات والتدفقات والأعاصير والعواصف المغناطيسية التي تجتاحها في كل أجزائها حيث تبلغ حرارة ذلك المحيط (٦٠٠٠) درجة مئوية.

---

(١) التكوير: ١.

- والمنطقة الحمراء التي تحيط بقرص الشمس تمتد لمسافة خمسة آلاف ميل تبلغ حرارتها نحو خمسين ألفًا من الدرجات المئوية.

- أما جو الشمس فيمتد لمسافة مليون ميل وحرارته تزيد على مليون درجة مئوية ربما بسبب وصول كميات هائلة من الموجات الصوتية عالية الطاقة من باطن الشمس إليها ولارتفاع حرارتها فغازاتها متأيِّنة ويظهر ذلك لنا بجلاء- نحن أهل الأرض- بعد الكسوف الكلي للشمس.

طاقة الشمس:

الشمس ببساطة قنبلة هيدروجينية هائلة تتم فيها تفاعلات نووية حرارية يعقبها وجود طاقة جبارة وهبها الخالق العظيم سبحانه لنا أهل الأرض.

بقي أن نعلم أن ما تمدنا به الشمس من الطاقة كل يوم يعادل ثماني مائة ألف قنبلة ذرية، فمن يطيق خلق ذلك وصنعه ولمن؟ ... الله تعالى بقدرته هو الذي خلق الشمس وأودع فيها الحرارة والطاقة والنفع للبشر وللحيوان والنبات.

بعد أن عرفت كل ذلك عن الشمس... ستعرف الآن ما هو أعجب من ذلك فافتح عينيك بعد أن تفتح قلبك لعجائب السماء وهي تدلك على وجود خالق الكون المبهر .

يحدث بالشمس انفجارات على هيئة لمعان مفاجىء لمناطق يبلغ عرضها على السطح عشرات الألوف من الكيلومترات وتتوهج في بضع ثوانٍ، وتشتمل على

سحب هائلة من المادة المقذوفة من سطح الشمس بسرعة كبيرة وتظهر لنا كألسن من لهب وهي تبعث بفيوضات من الأشعة السينية والأشعة فوق البنفسجية والجسيمات الكونية لتملأ الفضاء الموجود بين الكواكب.

- وهناك ما يسمى بالشمس الغاضبة... وهي بمثابة مجموعات البقع الشمسية الكبرى التي تمتد ألسنتها المتوهجة خارج الشمس لمسافات هائلة- مائة ألف ميل أو أبعد- وبعضها قد يعود للسطح ثانية.

- وهناك جزء من سطح الأرض تظل الشمس طالعة فيه ستة أشهر كما تغيب عنه ستة أشهر أخرى.

هذا الجزء هو الدائرة حول كلٍّ من القطبين المتجمدين الشمالي والجنوبي ويعرف جغرافيًّا بالدائرة القطبية.

والمعلوم أن ساعات الليل والنهار على سطح الأرض غير موزعة بالتساوي وإنما تتغير بتغير الزمان والمكان، وباستثناء الدائرتين القطبيتين يتساوى طول الليل والنهار في الربيع والخريف في (٢١) مارس، و(٢٣) سبتمبر على التوالي، وأطول ساعات الليل في شتاء نصف الكرة الشمالي في يوم (٢٢) ديسمبر، بينما أطول ساعات النهار في (٢١) يونيه، أما داخل الدائرة القطبية فإن طلوع الشمس يظل ستة أشهر من غير غروب ولهذا تسمى هذه المنطقة «أرض منتصف الليل» كما أن غروب الشمس يظل ستة أشهر أخرى من غير شروق.

ومن أروع صور الإعجاز العلمي في كتاب الله المسطور فقد ذكر القرآن الكريم اختفاء الشمس ستة أشهر ثم طلوعها ستة أشهر أخرى في الدائرة القطبية باسم «مغرب الشمس» و«مطلع الشمس» وهناك شمس لا تغيب هي «شمس منتصف الليل» في الدائرة القطبية، يقول تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾[1] والغالب كما تقول كتب التفسير: أن مغرب الشمس هو الدائرة القطبية، ويقول جل وعلا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾[2].

ومطلع الشمس كما جاء في بعض التفاسير: يعني الدائرة القطبية التي تظل فيها الشمس طالعة شهورًا متوالية لا تشرق ولا تغرب! ولهذا يسميها القرآن الكريم مطلع الشمس، وبطبيعة الحال لم يجعل الله سبحانه وتعالى لها ما يسترها في بقاع الدائرة القطبية عندما تطلع عليها، كذلك تغرب الشمس عن الدائرة القطبية ما يقرب من ستة أشهر...

والمهم من ذلك كله أن العرب لم يكونوا قد وصلوا إلى تلك البقاع ولم يكن اسمها العلمي قد عُرف بطبيعة الحال فمن أعلمهم بذلك؟!... إن الذي أعلمهم بذلك هو الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى...

---

(١) الكهف: ٨٦.

(٢) الكهف: ٩٠.

عندما ننظر ونتأمل في عظم خلق الشمس في حجمها وشكلها وكتلتها وطول قطرها ومقدار حرارتها ومدى أهميتها للكون كله ألا يدل ذلك على الإله المعبود بحق!؟

إن الشمس بكل ما فيها من عجائب مبهرات وما حولها من آيات بينات لمن أكبر الأدلة على وجود الخالق العظيم والصانع المبهر سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾[1] و﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾[2].

* * *

(١) يونس: ٥.

(٢) نوح: ١٦.

الفصل الثالث: القمر

انشقاق القمر:

أجمع معظم المفسرين حديثًا على أن الآية الكريمة: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾[1] تفيد بأن القمر سوف ينشق عند اقتراب الساعة في المستقبل؛ وذلك لأن التعبير بالفعل الماضي (اقتربت) يفيد تأكيد الوقوع والله تعالى الذي شقه نصفين على زمن الرسول ﷺ قادر على أن يشقه في أي لحظة وأن يعيده كما كان كتلة واحدة... وكذلك العلم (علمي الفيزيقا والفلك) يؤيدانه نظرًا للتغير التدريجي لنظام الأرض والقمر... فإن هناك عوامل تبطئ من زمن دوران الأرض حول نفسها من أهمها ومن أخطرها:

أ- جذب القمر للمياه في بحار الأرض ومحيطاتها في ظاهرة المد والجزر:

ولكن كيف يحدث ذلك؟

ببساطة شديدة يمكن تشبيه أثر ظاهرة المد والجزر في إبطاء حركة دوران الأرض حول نفسها برجل يدور حول نفسه ويمسك أحدكم بأطراف ثوبه وكلما أفلت من يده طرف الثوب أمسك فورًا بطرف آخر وبهذا يتعطل الرجل في دورانه حول نفسه، ولهذا فإن المد والجزر يبطئ أو «يفرمل» من دوران

---

(١) القمر: ١.

الأرض حول نفسها... ومن المعروف أن المد والجزر يتكرر مرة كل يوم في كل بحار الأرض ومحيطاتها وبهذا يتكرر التعطيل فيزداد طول اليوم على أرضنا تدريجيًا وتبلغ الزيادة ٠,٠٠٢ ثانية كل قرن، وهذه الزيادة وإن كانت ضئيلة جدًّا.. فهي كذلك بالنسبة لعمر الإنسان الذي يقاس بالأيام والأشهر والسنين ولكن عمر الأفلاك وأحداثها يؤرخ بملايين وبلايين السنين التي تجمع القليل التافه من هذه الأجزاء من الألف من الثانية لدرجة أن طول اليوم في الماضي عند نشأة الأرض كان (٤) ساعات فقط وعندما استقر الماء على سطح الأرض البحار والمحيطات وبدأ المد والجزر بفعل جذب القمر لهذا الماء أدى إلى تعويق دوران الأرض حول نفسها تدريجيًا إلى أن أصبح (٢٢) ساعة ثم هو الآن: (٢٣) ساعة و(٥٦) دقيقة و(٤) ثوانٍ على وجه الدقة ولسوف يصبح في المستقبل إن شاء الله (٤٣) ساعة بعد مرور خمسة بلايين سنة من الآن.

فهذا لا شك يوم طويل وطوله سيؤدي حتمًا إلى تطور نظام الأرض والقمر تطورًا يجبر القمر على الانشقاق.

ب- انشقاق القمر علميًّا:

وحيث إن الأرض سوف تبطئ في سرعة دورانها حول نفسها في المستقبل فإن القمر سوف يسرع حتمًا في دورانه حول نفسه وحول الأرض... وهذا التسارع في دوران القمر في المستقبل هو الذي سيؤدي إلى انشقاقه وذلك عن طريق:

- زيادة سرعة دوران القمر حول نفسه يؤدي إلى تغلب القوة الطاردة المركزية على أجزاء القمر المتماسكة فينشق ويتفتت، كما ينشق الشيء ويتفتت عندما يدور بسرعة في الخلاط الكهربي.

- كذلك زيادة سرعة دوران القمر حول الأرض سيؤدي إلى ابتعاد القمر عن الأرض ثم اقترابه منها تدريجيًا وخاصة بعدما يصل يوم الأرض- كما تقدم- إلى حوالي (٤٣) ساعة حيث سيقترب القمر من الأرض اقترابًا يجعل الفرق في تأثير جذب الأرض على جزئي القمر القريب والبعيد كافيًا لشقه شيئًا فشيئًا...

هذا ما يجب اعتقاده بأن القمر سينشق يومًا ما، ولكن متى؟ الله وحده هو الذي يعلم موعده وكيفيته فسبحان من بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون.

* * *

الفصل الرابع: الذرة

الذرة هي جسم لطيف شفاف علىٰ شكل بلّورة صغيرة تشبه فُقَاعة الصابون يدور في داخلها جُسيْمات ألطف وأصغر وأدق في محاور ومدارات فلكية مختلفة حول النواة التي تتوسط الذرة وهي شحنات كهربائية مُوجبة من عناصر سماها العلماء اليوم بالنيوترون والبروتون.. وتقع هذه النواة في وسط مركز الذرة ويدور حولها جُسَيمات لطيفة كهربائية سالبة سموها الإليكترونات، ويُشَكِّلُ الجميع في دورانه حول النواة وعلىٰ أبعاد تعتبر شاسعة بالنسبة إلىٰ حجمها مُكَوِّنَة جميعها ما يشبه مجموعة شمسية مُصغرة في نظام فلكي عجيب منسق لا يتصادم بعضه ببعض.. ويبقىٰ مُعظم حجم فُقاعة الذرة فراغًا كما هو الحال في المجموعة الشمسية.. وهذه الذرة والنواة التي بداخلها وهي أصغر منها بكثير والتي لم يكتشفها علماء ألمانيا وأمريكا إلا منذ خمسون عامًا فقط، ذكرها الرسول الأمي محمد صلىٰ الله عليه وسلم الذي لا يقرأ ولا يكتب.. ذكرها منذ (١٤٠٠) عام مضت في ذلك الوقت الذي لم يكن فيه علماء ذرة ولا أجهزة قياس للذرة.. نزلت عليه في القرآن الكريم ليخبرنا رَبُّنا جل وعلا عن الذرة والأصغر منها في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي

﴿ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1] سبحانه ربنا حقًّا الذي أخبرنا عن مثقال الذرة والأصغر منها ثم وجدنا ذلك الشيء الأصغر في النواة التي بداخل الذرة وفي الأجسام التي تدور حولها في نظام فلكي دقيق وعجيب (ولا تعجب من أمر الله).. سبحانه المهيمن علىٰ دقائق هذا الكون الفسيح إلىٰ ما لا نهاية والصغير إلىٰ أبعد حدود الصِّغَر.. حتىٰ أننا إذا ذهبنا إلىٰ أي مختبر علمي لنشاهد تحت المجهر ما يحدث داخل قطرة ماء مأخوذة من مُستنقع راكد فسنرىٰ العجب ونُذْهَلُ ونحن نشاهد حركة سكان لعالم متكامل داخل هذه القطرة من الماء.. سنرىٰ حيوانات وخلايا بالغة الحد الأدنىٰ من الصغر عددها بالآلاف وبالملايين تتحرك وتتغذىٰ وتتوالد في انقسامات سريعة.. ونتبصر في الذرة والحركة الفلكية الدائرة بداخلها رغم صغر حجمها الذي لم يُرىٰ حتىٰ بالمجهر ثم نرفع أبصارنا إلىٰ السماء إلىٰ ذلك العالم الأكبر في تكوينه وحجمه وسعته من النجوم والمجرات والكواكب السابحة فيه بنظام غاية في الدقة والإعجاز.. فلا نملك إلا أن يغمرنا الإحساس بعظمة خالق هذه الأكوان والمُهيمن والمُسيطر عليها.

* * *

---

(١) يونس: ٦١.

الفصل الخامس: المجرات

التعريف بالمجرة:

لكل شيءٍ وحدة بناء، فكما أن الذرة هي وحدة بناء المادة، والخلية هي وحدة بناء الكائن الحي فإن المجرة هي وحدة بناء الكون.

تتفاوت المجرات- وحدات الكون ولبناته- في الشكل وفي الحجم وفي الكتلة وفي النشاط وفي السرعة وفي كل شيء.

أولًا: من حيث الشكل:

هناك المجرات:

١ - **البيضاوية**: وهي مجرات قديمة أغلب نجومها من العمالقة الحمر.

٢ - **الحلزونية**، وهي تمتد بشكل مسطح كعجلة ضخمة، ولها مركز يحوطه قرص تخرج منه أذرع طوال مفتوحة أو مقفولة، ولها دوران حول مركزها واضح. وتتركز النجوم الحمر القديمة في المركز وما حوله من قرص، بينما تتواجد النجوم الزرق الحديثة في الأذرع.

٣- **القضيبية**: وهي بالحلزونية أشبه، وكل الاختلاف أن مركزها ليس قرصي الشكل وإنما على شكل عارضة طولية أو قضيبية تخرج الأذرع من طرفها.

ونجوم المركز أقدم من نجوم الأذرع، ولها دوران واضح حول مركزها.

٤ - **العدسية**: وهي وسط بين المجرات البيضاوية والمجرات الحلزونية، فهي ذات مركز وقرص وشكل مسطح ولكن بلا أذرع واضحة.

٥ - **القُبَّعِيَّة**: فهي بالقبعات المشهورة في المكسيك، قبعات سومبريرو، أشبه. وتتميز بانتفاخ غير عادي حول المركز وحافة عريضة من مادةٍ داكنة أشبه بحافة القبعة.

٦ - **الدوَّامية**: وهي بالمجرات الحلزونية أشبه، ولكن مركزها غير واضح، ولها أذرع طوال مفتوحة للخارج.

٧- **القزمية**: وهي مجرات بيضاوية ولكن في صغر، كما قد تكون كروية ونجومها قديمة نفد وقودها النووي. ونظرًا لصغرها فهي شديدة التأثر بجذب المجرات الضخمة القريبة منها فلا تملك إلا أن تتبعها وتدور معها وحولها.

٨- **غير المنتظمة**: وهي لها من اسمها نصيب، فلا شكل واضح لها ولا نواة ولا مركز. وتضم نجومًا من العمالیق القديمة الحمر أو العماليق الحديثة الزرق.

٩ - **أجسام لاسيرتا**: وبعضها يماثل المجرات البيضاوية ولكن بدون مركز، كما يشابه بعضها الآخر المجرات الحلزونية ولكن بغير أذرع. وهي تطلق الأشعة تحت الحمراء فقط ولا تطلق غيرها من أشعة، كما أنها من القدم والغموض والبعد بمكان.

١٠ - **أشباه النجوم**: النجوم «الكوازارات»: وهي من الغموض أيضًا والبعد واللمعان والعنف النووي بمكان، إذ أقرب كوازار منها يبعد عنا ألفي مليون سنة ضوئية! وهي أجرام غير منتظمة الشكل، كما أنها صغيرة نسبيًّا حيث لا يزيد قطر الواحد منها على مائة مرة ضعف قطر منظومتنا الشمسية، كما أنها تتباعد عنا بسرعاتٍ مذهلة.

ثانيًا: من حيث الحجم: ..

فإن المجرات تتفاوت في أحجامها تفاوتًا بينًا. فهناك مجرات لا يزيد قطرها عن (٣٢٠٠) سنة ضوئية فقط، كالمجرات القزمية البيضاوية. بينما المجرات العملاقة البيضاوية يصل قطر الواحدة منها إلى (١٦٣) ألف سنة ضوئية. أما أكبر مجرة اكتشفت حتى الآن فهي مجرة «مالين-١» ويبلغ قطرها نحو ٧٥٠,٠٠٠ سنة ضوئية! والسؤال الآن كم يبلغ طول قطر مجرتنا؟ والجواب عن هذا السؤال:

يبلغ طول قطر مجرتنا (١٠٠) ألف سنة ضوئية، وتضم أكثر من (١٠٠) ألف مليون شمس، بينما تضم جارتنا مجرة المرأة المسلسلة ثلاثة أمثال هذا العدد.

ثالثًا: من حيث الكتلة: ..

تتفاوت المجرات كذلك من حيث كتلتها تفاوتًا عظيمًا، حيث تقدر كتلة أصغر المجرات المعروفة لنا بنحو مليون شمس فقط، بينما تقدر كتلة أكبر المجرات المعروفة لنا بنحو مليون مليون شمس (أي عشرة وعن يمينها أحد

عشر صفرًا). ويعتمد العلماء رقمًا يعادل قدر وزن الشمس ألف مليون مرة للدلالة على وزن مجرة متوسطة. ولكن... كم يبلغ وزن مجرتنا؟ والجواب:

مائتي ألف مليون شمس (اثنان وعن يمينها أحد عشر صفرًا).

رابعًا: من حيث النشاط:...

فمن المجرات ما هو عادي مثل مجرتنا ومجرة المرأة المسلسلة، ومنها ما هو نشط يضم عددًا من النجوم الحمر القديمة والنجوم الزرق الحديثة، ومنها ما هو راديوي يصدر فيضًا من الإشعاعات النووية القوية انطلاقًا من مركزه على هيئة بلازما.

خامسًا: من حيث السرعة:...

فالمجرات تتفاوت فيما بينها في سرعاتها اقترابًا وابتعادًا عنا، ومنها ما يبتعد عنا بسرعة تزيد على ثلاثة أرباع سرعة الضوء.

بعد هذا العرض السريع لوحدة بناء الكون- المجرات- لا تملك إلا أن نقول: سبحان الله الخلاق العظيم، الذي مايز بين هذه الأجرام السماوية العملاقة في حجمٍ وكتلةٍ ونشاطٍ وسرعة، ليؤدي كل منها وظيفته التي خلقه الله من أجلها... وإليك أخي القارئ أحب أن أهمس في أذنك:

كل ما في الكون كما رأيت من الذرة إلى المجرة يؤدي وظيفته التي خلق لها على أكمل وجه وأتمه... فهل أديت عملك ووظيفتك التي خلقك الله من أجلها؟!

* * *

مجرة درب التبانة..

كيف تكونت؟ وما هي؟ وما مكوناتها؟ وما موقعها في الكون؟ وما موقع منظومتنا الشمسية فيها؟ وما موقعها في الكون؟

يقول العلماء وبتبسيطٍ شديدٍ: تكونت مجرتنا نتيجة عمليات أربع: تجميع، فدوران، فانهيار، فتكثيف.

تكونت مجرتنا بتجميع سحابة هائلة مخلخلة من الغازات تمامًا، حيث لا تزيد كثافتها عن ذرة واحد في كل ثلاثة سنتيمترات مكعبة. أخذت هذه السحابة شكل الكرة الضخمة، التي بدأت تدور ببطء في البداية حول نفسها بفعل تأثير جاذبية الأجرام السماوية الأخرى القريبة منها. وهذا الدوران أدى إلى تكوين نوع من الجاذبية الخاصة لهذه السحابة الغازية وما تحمله من أتربة كونية. ثم بدأت عملية انهيار نحو الداخل وتكثيف نحو مركز الدوران. وأدت زيادة سرعة الدوران إلى تكثيف المادة وتجمعها ومن ثم اتخذت السحابة الكروية بالتدريج شكل القرص. وبزيادة المادة وتراكمها ارتفعت درجة الحرارة بما يكفي لبدء التفاعلات النووية بإشعال الهيدروجين. ومع زيادة الحرارة والضغط ازدادت سرعة الدوران والجاذبية، ونتيجة لذلك تكونت نواة المجرة ثم أذرعها.

* * *

شكل المجرة:

هو عبارة عن قرص وأربع أذرع، وتفصيل ذلك:

أما القرص فيمثل لب المجرة والأذرع بمثابة أطرافها، وهذه الأذرع هي (من الداخل للخارج):

١ - **ذراع القوس (أو الرامي)**: وتبعد عنا (٦٥٠٠) سنة ضوئية، ويمكن مشاهدتها من نصف الكرة الجنوبي.

٢ - **ذراع الجوزاء**: وتبعد عنا (٦٥٠٠) سنة ضوئية أيضًا، وهي الذراع التي نشاهدها في منتصف السماء في ليلة صافية كشريط ضوئي مميز من الجنوب إلى الشمال.

٣ - **ذراع فرساوس**: وتبعد عنا مسافة ٨ آلاف سنة ضوئية.

٤ - **ذراع الثلاثة آلاف بارسك**: وتبعد عنا (٩٧٨٠) سنة ضوئية.

* * *

التعريف بالمجرة:

هذه بطاقة تعارف، لمجرتنا «درب التبانة» لتتعرف أخي القارئ على جزء يسير بالنسبة إلى الكون الفسيح حتى توقن معنى بوجود الله وتعلنها على الملأ: سبحان من هذا ملكه!..

الاسم:	مجرة درب التبانة.
اسم العائلة:	المجموعة المحلية.
عدد أفراد العائلة:	٣١ فردًا (مجرة).
تاريخ الميلاد:	قبل سبعة آلاف مليون سنة.
مكان الميلاد:	على أطراف الكون.
عدد الأذرع:	٤ أذرع.
القطر:	١٠٠ ألف سنة ضوئية.
السمك (عند المركز):	١٠ آلاف سنة ضوئية.
السمك (عند الأطراف):	٢٦٠٠ سنة ضوئية.
عدد الأولاد:	أكثر من ١٠٠ ألف مليون ولد (نجم).
الكتلة:	٢٣٠ ألف مليون مرة قدر كتلة الشمس.
طول اليوم:	٢٥٠ مليون سنة أرضية.
اتجاه الدوران:	في اتجاه عقارب الساعة (بالنظر للمجرة من فوق قطبها الشمالي).

مكونات المجرة:

تتكون مجرة (درب التبانة) من نجوم وهالة وتابعان.

أما النجوم فهي أنواع ثلاثة:

١ - **نجوم القرص**: وهي نجوم قديمة قدم المجرة ذاتها، لذا فهي من العماليق أو فوق العماليق الحمر.

٢ - **نجوم الأذرع**: وهي نجوم جديدة، لذا فهي من النجوم الزرق الشابة.

٣- **نجوم الهالة**: وهي أيضًا نجوم قديمة قدم المجرة ذاتها، مفردة أو في مجموعات كروية، وهي تدور جميعًا حول مركز المجرة من الخارج بطريقة متقاطعة أو مائلة على خط استواء المجرة.

وأما الهالة فمناطقها ثلاث: خارجية ووسطى وداخلية:

١ - **المنطقة الخارجية**: وهي بمثابة حزام إشعاعي بعيد جدًّا تم اكتشافه عام (١٩٥٠).

٢- **المنطقة الوسطى**: وهي سمكية حيث تمتد لمسافة (٥٠) ألف سنة ضوئية، وتضم مادة قاتمة غير عاكسة للضوء ولا تحوي أي نجوم أو سحب غازية.

٣- **المنطقة الداخلية**: وتضم نجوم الهالة ومجموعاتها التي تدور حول مركز المجرة من الخارج متعامدة على خطها الاستوائي.

وأما التابعان فهما مجرتا السحابة الماجلانية:

١ - **مجرة السحابة الماجلانية الصغرى (SMC)**: وتقع جنوبي شرق خط استواء مجرة درب التبانة، وعلى بعد (١٩٥) ألف سنة ضوئية منه ولكن داخل هالة المجرة، ويبلغ حجمها واحد على (٢٠٠) من حجم مجرة درب التبانة، وتقدر كتلتها بنحو (١,٥) ألف مليون كتلة شمسنا. وهي قسمان لكلٍّ منهما سرعة مختلفة وتحيط بالمجرتين الصغيرتين سحب كثيفة من غاز الهيدروجين قادمة من القطب الجنوبي لمجرة «درب التبانة» وتمتد آلاف السنوات الضوئية، ويبدو أنها من مخلفات عمليات بناء المجرة!.

٢ - **مجرة السحابة الماجلانية الكبرى (LMC)**: وتقع في الشمال الشرقي من المجرة الأولى، أي أقرب إلى خط استواء مجرة درب التبانة وعلى بعد (١٦٣) ألف سنة ضوئية منه ويبلغ حجمها واحد على (٣٠) من حجم مجرة «درب التبانة»، وتقدر كتلتها بنحو (٦) آلاف مليون كتلة شمسنا!. وتجمع هذه المجرة بين النجوم العمالقة الحمر والنجوم الشابة الزرق، كما تكثر فيها المجموعات النجمية وتشتهر بسديم معروف تمامًا لدى الفلكيين وهو سديم «ترانتولا» **TARANTULA NEBULA** الذي يعد «زعيم» السدم في مجرتنا وكبيرها.

سبحان الخلاق العظيم، نجوم وهالة وتابعان، والكل يعمل بدقة متناهية وإحكامٍ عجيب، فلا النجوم تدخل في الهالة ولا الهالة تصطدم بالتابعين ولا للتابعين أن يطغى أحدهما على الآخر بل احترام كامل للوظائف والأدوار والمسافات، إن هذا لمن أكبر الأدلة على وجود الله... المسيِّر لهذا الكون

بحكمته... المدبر لشئون خلقه بإرادته ... الذي إذا نطق الكون بما فيه ومن فيه لأقر وشهد. بوجود الله بكينونته.

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

* * *

موقع المنظومة الشمسية في المجرة:

كما يتضح من بطاقة التعريف بمجرتنا درب التبانة، فإن قطرها يبلغ طوله (١٠٠) ألف سنة ضوئية، ومن ثم فنصف قطرها (٥٠) ألف سنة ضوئية، ومنظومتنا الشمسية تبعد عن مركزها (٣٠) ألف سنة ضوئية وعن حافتها (٢٠) ألف سنة ضوئية. ومنظومتنا الشمسية مائلة عن خط استواء المجرة وليست موازية لها.

والمنظومة الشمسية لا تقع داخل أذرع المجرة مباشرة ولكن في فرع جانبي بالعرض يصل ما بين ذراع الجوزاء وذراع فرساوس، وله اسم جميل وهو: **ذراع النية الحسنة Bona-Fide Arm**.

وهي ذراع قصيرة جدًّا تتقاطع مع الذراعين الضخمتين- الجوزاء وفرساوس- ولكننا أقرب إلى ذراع الجوزاء.

علمنا -فيما سبق- موقع منظومتنا الشمسية في مجرتنا، فما هو موقع المجرة ذاتها في الكون؟... والجواب:

---

(١) آل عمران: ١٩١.

هي على أطراف الكون! فهي تبعد حوالي (١٩-٢٣) ألف مليون سنة ضوئية عن مركز الانفجار الكوني الأول والذي لم يتحـدد مكانـه بدقـة بعـد، ومـا زال الكون يتمدد ويتسع منذ ذلك الانفجار العظيم وربما إلى ما شاء الله.

* * *

الفصل السادس: الهواء والريح

الفرق بين الريح والهواء إنما هو بالتحرك وعدمه، فإن كان متحركًا سمي ريحًا، وإلا سمي هواء، وبسبب التحرك تنوعت الريح إلى أنواع متعددة، واختص كل منها بمزايا ومنافع فمنها الجنوبي ومنها الشمالي ومنها الشرقي ومنها الغربي ومنها الحار ومنها البارد ومنها الشديد ومنها الضعيف ومنها البطيء في سيره ومنه الضعيف، ومنها الزوبعة وهي الريح التي تدور حول نفسها شبه منارة.

هذه الريح التي تنوعت إلى تلك الأنواع قد قامت بمنافع سكان الأرض فتسوق السحاب إلى مواقع مطره، وتلقح الثمار بنقل مادة التلقيح من أعضاء التذكير إلى أعضاء التأنيث، وتلطف الحرارة وتسوق السفن في البحار.

نظرة واحدة إلى ذلك التنوع، وتخصيص كل نوع بمزية، وفائدة تعود على المصنوعات، أو ضرر يترتب على ذلك النوع، قد دل دلالة واضحة على أن ذلك بصنع فاعل مختار حكيم.

أما الهواء ففائدته تعود على كل نامٍ، نباتًا كان أو حيوانًا، ولولاه لما نما النبات ولا عاش الحيوان.

وحول قول الحق سبحانه: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[1] وأيضًا حول المراكب الشراعية في الأنهار والبحار إذا توقفت الرياح هل تقف هذه المراكب الشراعية فقط عن السير أم تمتد الآية لبعض المراكب الأخرى أيضًا؟.

يقول فضيلة أ.د/ زغلول النجار:

بعض الناس يقول إن هذه المراكب التي تسير بالموتورات العملاقة بالفحم أو البترول أو أي طاقة أخرى ما الذي يوقفها إذا انعدمت الريح؟ تُوقف طبعًا؛ فالأكسجين الذي يوجد في الهواء إذا توقف هذا الأكسجين توقفت الحركة ليس فقط المراكب الشراعية ولكن كافة أنواع المراكب التي تستخدم كافة أنواع الوقود وتتحرك بالمراحل البخارية باستخدام الفحم أو النفط حتى الوقود النووي إذا انعدمت الريح تتوقف الحركة تمامًا؛ لأن وسيلتها في الاحتراق غاز الأكسجين الموجود في الجو.

قال تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾، فلو أن غير المسلم سمع ذلك وفهمه لقال أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله؛ لأن ما يحدث في البحار والأنهار والرياح لمن أهم الأدلة على وجود الله تعالى.

* * *

---

(١) الشورى: ٣٣.

الفصل السابع: الفضاء والكواكب

ذكر علماء الهيئة أن أفراد الكواكب قد تباينت في الأوصاف من جهات متعددة، فبعضها كبير، وبعضها صغير بالنسبة إلى ذلك الكبير. انظر ما قالوه في جرم الشمس والأرض، ومنها القريب منا ومنها البعيد، ومنها بطيء السير ومنها سريعه، حتى قيل: إن المشتري يسير ثلاثين ألف ميل في الساعة، ومنها ما نوره أصلي كالشمس، ومنها ما نوره مكتسب كالقمر، ومنها ما فيه حرارة كالشمس، ومنها ما لا حرارة فيه كالقمر، ومنها الشمالي، ومنها الجنوبي، ومنها المتوسط.

وهي قائمة في الفضاء سائرة في أبراجها ومنازلها بغاية الضبط والإحكام بحركات مختلفة ودورات متنوعة، تُضبط بها الأوقات، ويُعلم منها السنون والأشهر والأيام والساعات، وتمتاز الفصول بترتيب تحار فيه العقول.

أضف إلى ذلك ما يعود على الحيوان والنبات والمعادن من المنافع بواسطة هذه الكواكب.

لا شك أن تخصيص كل فرد من أفراد هذه الكواكب بما اختص به مع التساوي في الجسمية وأمور أخرى دليل قاطع على أنه لابد لذلك التخصيص من مخصص مختار عالم بالحِكَمِ والمصالح المترتبة على وجود كل فرد بوصفه الخاص به.

* * *

الفصل الثامن: السحاب والمطر والرعد والبرق

الذي يعنينا في هذا الموضوع هو التعريف بأن وجود هذه الأشياء مرتب عليه منافع للناس، وثمرات للعالم، يدل على أن لها موجدًا حكيمًا مختارًا في فعله يفعل ما يشاء ويختار.

أما النظر إلى ما وراء ذلك، ومعرفة ما تكونت منه وما نشأت عنه فلا يعنينا في هذا المقام؛ لأن مقصودنا ليس متوقفًا عليه، لهذا نضرب صفحًا عن بيان الخلاف الواقع بين علماء الإسلام وغيرهم في بيان ماهية هذه الأشياء، وما تكونت منه ونسير في طريقنا فنقول إذا نظرت إلى السحاب تراه يسير بين السماء والأرض بدون احتياجه إلى شيء يرتكز عليه لا ينزل إلى الأرض ولا ينكشف مع أن طبع السحاب لا يخلو عن واحد من الأمرين. إما النزول إلى الأرض وإما الانكشاف؛ لأنه لو كان خفيفًا لطيفًا ينبغي أن يصعد وينكشف، ولو كان كثيفًا ينبغي أن ينزل إلى الأرض، كذلك تراه لا يدوم بل يوجد بمقدار مخصوص؛ لأنه لو دام عظم ضرره من حيث إنه يستر ضوء الشمس ويكثر الأمطار ولو انقطع عَظُمَ ضررُه لأنه يقتضي القحط. فوجوده على هذا النحو وفي بعض الأحوال دون البعض دليل على أن له خالقًا مدبرًا مختارًا قادرًا على ما يريد.

انظر إلى الأمطار ترى القطرات التي تنزل إلى الأرض تارة تكون كبيرة وتارة تكون صغيرة، وتارة تكون قريبة من بعضها، وتارة تكون بعيدة عن بعضها، كل

هذا التفاوت يقع مع أن طبيعة الأرض التي ينزل إليها المطر واحدة، وطبيعة الشمس المسخنة واحدة.

وأما الرعد والبرق فقد ترتب على وجودهما فوائد كثيرة، منها تحليل مياه السحاب، بسبب حرارة النور وحركاته وحركات الرعد، مع ما فيها من استدلال سكان البوادي على مواقع سقوط المطر فوجودهما وترتب هذه الفوائد عليها بخصوصها لابد له من مخصص مختار في تصرفه.



العالم السفلى



كل ما في الأرض شاهد على وجود الله سبحانه ففيها آيات ذات دلالات شاملة ودقيقة وعميقة على وجود الله الذي هيأها لقيام الحياة عليها وإليك جملة من الآيات القرآنية ترشدنا إلى ذلك، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾[1]، وقال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾[3]، وقال جل شأنه: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾[4].

وإليك بعض حقائق الأرض الناطقة بوحدانية الخالق:

- كمية الهواء لا تزيد على جزء من مليون جزء من كتلة الأرض وتتفق مع حاجات الأحياء؛ لأنها لو زادت لازداد الضغط على الإنسان حتى يزهق، ولو نقصت لأفسحت المجال للشهب المحترقة في الفضاء أن تضرب وجه الأرض فيهلك ما بها من الحرث والنسل.

---

(١) البقرة: ٢٢.

(٢) طه: ٥٣.

(٣) النمل: ٦١.

(٤) الحجر: ١٩-٢٠.

- نسبة الأكسجين لو انخفضت لاختنقت الحياة ولو زادت لاحترقت، وإن الجزء الأكبر منه محتجز في مركبات في البر والبحر حتى إنه يشكل ثمانية من عشرة من جميع مياه العالم.

- الماء يغطي ثلاثة أرباع الأرض لتتم عملية التبخر وتتعدل درجة الحرارة، وقد جعل ماء البحر مالحًا لئلا يدب فيه الفساد من بقايا الحيوانات النافقة الملقاة فيه وما يصب من سواقط اليابسة.

- قد وزعت البحار بين القارات لتتم عملية المطر الدورية- بخار صاعد وماء نازل- لتحيا به الأرض.

- تدور الأرض حول نفسها بسرعة (١٠٠٠) ميل في الساعة، وحول الشمس بسرعة (٦٥) ألف ميل، وتبعد عنها قرابة (٩٣) مليون ميل، ووضعت في مدارها بزاوية قدرها (٢٣) درجة، ولو تغيرت زاوية الميلان لتعذرت الحياة... ولو زاد حجم الأرض أو نقص لتغيرت السرعة والجاذبية والمدة المستغرقة في دورانها حول نفسها وسبحها حول الشمس ولاختل وضع الحياة... ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[1].

ولو زاد سمك القشرة الأرضية بضعة أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون والأكسجين.

---

(١)سورة يس آية: ٤٠.

ولو صارت سرعتها (١٠٠) ميل بدلًا من(١٠٠٠) لصار طول النهار (١٢٠) ساعة... ولاحترقت الزروع أو أتلفها زمهرير الليل، ولو اختلت سرعتها حول الشمس لاختل أمر الفصول الأربعة ونظام المطر، ولأصبح وسط الأرض صحراء محرقة بشمس الصيف الدائم ولأمسى طرفا الأرض مدفونين تحت (كام من الثلوج)...

- ثم إن الغلاف الجوي حول الأرض يبلغ ارتفاعه حوالي: (٥٠٠) ميل وهو يحفظ حرارة الأرض المناسبة للأمطار، ويأذن للأشعة ذات التأثير الكيميائي أن تصل إلى الزروع وهي مفيدة لها، وتصل إلى الجراثيم وهي قاتلة لها.

- وكذلك، تمنع طبقة الأوزون الأشعة فوق البنفسجية الضارة أن تصل إلى الأرض؛ إذ لو وصلت لأهلكت الحياة، بل تأذن منها بما ينفع الحياة التي مهدت لها الأرض، يقول الخالق المبدع سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾[1].

...إن خلق هذا الكون بإيجاده من العدم، وخلق الحياة فيه بكل أنواعها وأشكالها لدليل باهر على وجود الله تعالى.

...وإن خلق الأشياء حسنة متقنة، مستوية معتدلة حيث هُيئت لأداء وظيفتها وأُمدت بما به صلاحها وبقاؤها لدليل ثانٍ على وجوده سبحانه.

---

(١)سورة النبأ آية: ٦.

...وإن خلق هذه الأشياء المسواة بحساب دقيق وقسطاس مستقيم ومقدار مضبوط وترتيب رائع؛ حيث جاء كل شيء متلائمًا مع مكانه وزمانه ومتناسقًا مع غيره من الموجودات لدليل ثالث على وجود الله تعالى.

* * *

الفصل الأول: الأرض

الأرض وما فيها من الجبال والبحار:

الأرض بحسب طبيعتها قد اشتملت على قسمين: ماءٍ ويابس.

أما الماء فهو المحيطات والبحار، ومساحتها تبلغ ثلاثة أرباع سطح الأرض، وهي مسكن الأمم المائية، ومصدر الجواهر البحرية، وتلك الأمم التي تسكنه أنواع مختلفة، كبار وصغار تنمو وتسكن في أماكن مخصوصة، حسب أجناسها وقد خصت تلك المحيطات بالمد والجزر، والتيارات السطحية والسفلية، والأمواج التي كالجبال، وبالملوحة الملازمة لمائها، التي لولاها لأنتن الماء، فأهلك الحرث والنسل، كما سخرت للبشر فيركب الفلك التي تجري فيها ويخوض لجتها.

وأما الجزء اليابس وهو ربع الأرض، فمنه جبال ومنه أودية، وسهول وكهوف ومعادن، وكل نوع من هذه الأنواع مع كونه أرضًا ويابسًا خص بمزايا لم توجد في الآخر.

انظر إلى الجبال فهي مسكن الوحوش والطيور، ومنبت الأشجار الشامخة التي هي مادة الأخشاب والوقود، وهي الحافظة للبقاع المسكونة من الرياح الحارة والباردة، ومع هذا فمنها ذو المنظر البهيج ومنها الأجرد الذي لا يصلح إلا مادةً لبناء الدور والحصون.

انظر إلى الأودية: فمنها ما يخيل إليك أنه جنة نعيم، كالبساتين التي جمعت أنواع الفواكه، والمشمومات والمناظر الجميلة، ومنها ما هو كدار الجحيم، مثل وادي الموت الكائن قرب «جاما»، فإنه واد بطنه رمضاء محمومة، وقفر لا نبات به ولا حيوان فيه، فلا يحله طائر، ولا تدب فيه دابة، ولا يكمن فيه وحش إلا ويعالجه الموت، ولا يرى فيها إلا الرمم البالية من عظام الحيوانات وهوالك الحشرات.

انظر إلى الكهوف ترى بعضها حصنًا، تأوي إليه الحيوانات وتتحصن به، مثل الكهوف التي تسخن في الشتاء فإنه يأوي إليها من الحيوانات ما لا يقوى على برد الشتاء، وترى بعضها كهف موت لا يدخله حيوان إلا مات في الحال؛ لأنها متنفس جبل ناري قد خمد وبقي من متنفسه هواء سام يقتل من يستنشقه.

أما السهول: وهي المواضع الصالحة للزراعة فهي متوسطة بين الصلابة والرخاوة؛ لأنها لو كانت صلبة لا تصلح للزراعة، ولو كانت رخوة لغاصت فيها أقدام الحيوانات، وهي مع ذلك متنوعة التربة، يناسب كل جزء منها نباتًا لا ينبت فيها سواه.

وأما المعادن المتولدة في أحشاء الأرض، فهي متباينة الأنواع مختلفة الخواص صالحة لمنافع سكان الأرض منها الجامد ومنها السائل، ومنها قابل للذوبان وغير قابله ومنها ذو اللون الأحمر والأصفر والأبيض وغير ذلك.

تأمل أيها الناظر قليلًا في جعل معظم أجزاء الأرض ماء والقليل يابسًا، وتخصيص الماء بتلك الخواص التي ذكرتها، وتنوع اليابس من الأرض إلى جبال

مختلفة الخواص والمناظر والمزايا، وإلى أودية بعضها دار نعيم وبعضها دار جحيم، وإلى كهوف بعضها حصون وبعضها مميت، وإلى سهول تنبت أنواعًا متعددة، كذلك إلى المعادن التي اشتمل عليها باطن الأرض من ذهب وفضة ونحاس وحديد وغير ذلك، وما خص به كل نوع من المزايا (والكل أرض)، علم أن لها موجدًا موجودًا، مختارًا في عمله ليس من جنس المخلوقات.

* * *

السير في الأرض

حول قول الحق سبحانه ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾[1]. ولماذا لم يقل سيروا على الأرض؟ يحدثنا فضيلة الشيخ الشعراوي فيقول:

الحقيقة العلمية هي أننا فعلًا نسير في الأرض وليس على الأرض؛ لأن هناك غلافًا جويًا يحيط بالأرض وهو جزء منها، ونحن لا نخرج من الأرض إلا إذا خرجنا من هذا الغلاف الجوي.

فالطائرات التي تطير على ارتفاعات مختلفة تطير في الأرض وليس خارج الأرض، ولكن الذي يخرج من الأرض هو سفن الفضاء التي تتجاوز الغلاف الجوي للأرض، وبدون تجاوز هذا الغلاف لا تستطيع أن ترى صورة الأرض

---

(١) من الآية (٢٠) سورة العنكبوت.

كاملة، فأنت خارج عمارة مثلًا تستطيع أن تعرف شكل العمارة، ولكنك من داخلها ومن أي مكان فيها لا تستطيع أن ترى الصورة كاملة.

وعلى أية حال.. فإنه علميًّا أنت لا تكون خارج الأرض إلا إذا خرجت من الغلاف الجوي المحيط بها؛ لأن الأرض والغلاف الجوي شيء واحد.

فنحن نسير حقيقة على سطح الأرض، ولكننا نسير في الأرض، أي بين سطح الأرض والغلاف الجوي فما تحتنا هو أرض، وما فوقنا هو جزء مكمل للأرض- وهو الغلاف الجوي.

وهكذا نرى دقة تعبير القرآن الكريم في وصفه لحركة الإنسان في الأرض.

وإذا كان هذا الوصف يعطينا معجزة، فإن الأرض نفسها تعطينا معجزة أخرى.

نحن نرى ونمشي في مزارع الأرض وحدائقها، ونرى أمامنا الأشجار المختلفة والنباتات المختلفة، ولكن هل يفكر أحد منا في معجزة الخلق في هذه النباتات التي نراها كل يوم؟

نحن نعرف أن النباتات تحصل على غذائها بواسطة جذورها الدقيقة، التي تضرب في الأرض.. فتأخذ منها عناصر الغذاء التي تعطيها النمو والثمر، حيث يصعد الغذاء من جذور النباتات إلى الساق والأوراق والثمار ليغذيها.

وفي هذه العملية الغذائية للنبات كثير من آيات الخلق وإعجاز الخالق، فالغذاء في الأرض بعناصره كلها واحد متجانس، ولكننا نرى كل شجرة تأخذ من هذا

الغذاء ما يناسب ثمارها، أي أنها تختار العناصر اللازمة لها وتترك الباقي ولا تأخذه ولذلك نرى الزرع ينبت في مكان واحد، ويُسقى بماء واحد، ولكن كل ثمرة لها طعم وشكل ولون ورائحة وحجم يختلف عن الأخرى، فهذه حلوة وهذه مُرَّة، وهذه صغيرة وهذه كبيرة، وهذه لونها أحمر وتلك لونها أصفر أو أخضر أو أبيض، وهذه لها رائحة نفاذة وتلك ليس لها رائحة، وأشكال وألوان مختلفة.

وكل شجرة من هذه الأشجار تأخذ من الأرض ما يناسبها من عناصر للتكوين الدقيق لها بكل تفاصيله وتترك الباقي، ونرى شجرة التفاح ثمرها حلو ورائحتها نفاذة، وبجانبها الليمون طعمه حامض، وبجانبها الحنظل طعمه مر.

ونرى ثمرة نأكلها ونترك ما بداخلها مثل المشمش والخوخ والبلح، وثمرة ننزع غلافها ولا نأكله ولكننا نرميه كالبرتقال والبطيخ، وثمرة لها غلاف هش كالبرقوق مثلًا، وثمرة غلافها جامد قوي لا تستطيع أن تنزعه بيدك كالجوز واللوز والبندق وجوز الهند، وثمرة صالحة للتخزين شهورًا طويلة كالجوز واللوز.

ونستطيع أن نمضي بلا نهاية في وصف أنواع الثمر المختلفة التي تنبتها الأشجار، ولكننا نفضل أن نذكر الآية الكريمة التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ

﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(1).

الغلاف الجوي من أسرار الحياة على الأرض

ثم تحدث فضيلة الشيخ الشعراوي- رحمه الله تعالى- عن معجزة خلق الكون وما فيه من أرض وسماء ومياه وجبال وبحار... وبدأ حديثه المشوق الممتع مشيرًا إلى وحدة الكون كله في الأصل؛ حيث إن السموات والأرض كانتا شيئًا واحدًا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا . وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾(2).

هذا ما أخبرنا القرآن به منذ أربعة عشر قرنًا فهل توصل علماء الجيولوجيا إلى ذلك الآن؟

قال الشيخ الشعراوي:

«لقد عُرض معنى هذه الآية في مؤتمر الإعجاز القرآني في السعودية على الدكتور: «الفريد كرونر» وهو من أشهر علماء العالم في الجيولوجيا، وعندما قرأ المعنى أخذ يصيح: مستحيل.. مستحيل أن تكون هذه الحقائق قد ذكرت في أي كتاب منذ أربعة عشر قرنًا!!».

(1) الرعد: ٤.

(2) الأنبياء: ٣٠.

إننا لم نصل إلى هذه الحقيقة العلمية إلا منذ سنوات، وباستخدام وسائل علمية متقدمة جدًّا، وبعد دراسات معقدة طويلة خاصة بعلم الطبيعة النووية، والأصل الواحد للكون لا يمكن أن يكون قد توصل إليه بشر منذ ألف وأربعمائة سنة!! ولكن الوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع أن تثبت ما قاله محمد ﷺ منذ ألف وأربعمائة سنة، فقد صعد الإنسان إلى القمر ومشى فوق سطحه، وجاء بعينات من الصخور التي على السطح، ومن الصخور الموجودة تحت السطح، وعادوا بها إلى الأرض، وإذا بهم يكتشفون أن سطح القمر مكون من نفس عناصر الأرض، وأن صخور القمر في تركيبها هي نفس صخور الأرض، وأنهما من أصل واحد.

ألم يكن هذا كافيًا كدليل مادي قوي على أن يؤمنوا؟

ألم يكن إثبات نظرية الأصل الواحد للسموات والأرض- الذي أخبرنا به الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة- دليلًا كافيًا على وجود الله.. وعلى أنه الخالق؟

ونعود إلى الآية الكريمة مرة أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾[(1)].

في هذه الآية أعطانا الله سرًّا من أسرار الحياة، وهو الماء..

---

(1) الأنبياء: ٣٠.

ولقد أصبح هذا حقيقة علمية يعترف بها العالم أجمع، فالصور الحديثة التي تلتقط بالأقمار الصناعية وسفن الفضاء والكواكب القريبة من الأرض جعلت العلماء يتنبئوا إذا كان في هذا الكوكب حياة أم لا، رغم أن هذه الصور لا تأتي بالتفاصيل الدقيقة التي تبين إذا كانت هناك مخلوقات موجودة على سطح هذه الكواكب أم لا، ولكن مجرد علمهم بأن الصور لا تدل على وجود الماء على سطح الكوكب فإنهم يؤكدون أنه لا حياة فيه، فإذا كان هناك ما يشير إلى أن الماء موجود تحدثوا عن احتمالات الحياة..

وعملية وجود الماء هي من قدرة الله سبحانه وتعالى التي احتفظ بها لنفسه، وهي عندنا في الأرض تتم دون عمل من الإنسان، بل هي عطاء من الله، حيث يصعد بخار الماء من المحيطات والبحار، ويتكثف في طبقات الجو العليا وينزل مطرًا؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾[1].

ومعنى هذا أن الماء هو رزق من السماء بقدرة الله، وكل من يدعي غير ذلك نطالبه أن ينشئ لنا نهرًا صغيرًا وسط الصحراء ويملأه بالماء إن كان يستطيع، ولن يستطيع.

ولكن اعتراف العلم ويقينه من أن وجود الماء معناه وجود الحياة- لم يلفتهم إلى ما ذكره القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا، وكان يجب أن يلتفتوا إلى هذا

---

(١) الواقعة: ٦٨-٧٠.

الإعجاز، فيؤمنوا بالله خالقًا وموجودًا وإلهًا واحدًا، ولـذلك يقـول الحـق جـل جلاله: ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

ومع أنهم قد عرفوا الدليل المـادي في الأصـل الواحـد للسموات والأرض، وأن الماء هو سر الحياة- فإنهم لم يؤمنـوا، وحينئـذ يكـون عـدم إيمانهـم مكـابرة وعنادًا، ويكون عذابهم في جهـنم عـدلًا مـن الله- الـذي أعطـاهم الـدليل تلـو الدليل، ومع ذلك فإنهم لا يؤمنون.

وقبل أن نترك السماء وآيتها لابد أن نتحدث عن الإعجاز في خلق الـسموات والأرض، فنحن ننظر إلى السماء ونرى أشياء وتغيب عنا أشياء..

يقول الله تعـالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[2].

عندما قرأ البروفيسور «يوشيدي كوزاي» مدير مرصد «طوكيو» معنـى هـذا الكلام وأراد أن ينهي المناقشة قال: «العلم لم يصل إلا منذ فترة بـسيطة جـدًّا إلى أن السماء كانت دخانًا، وقد أصبح هذا شيئًا مشهودًا ومرئيًّا الآن- بعـد إطـلاق سفن الفضاء والأقمار الصناعية- وعَرَضَ صورًا التقطت لنجم في الـسماء وهـو

---

(١) الأنبياء: ٣٠.

(٢) فصلت: ١١.

يتكون، وقد بدا كتلة من الدخان في وسطها تكون الجزء المضيء من النجم وحوله الدخان، وتحيط بالدخان حافة حمراء دليل على ارتفاع درجة الحرارة.

وقال: «لقد كنا نعتقد منذ سنوات فقط أن السماء كانت ضبابًا، ولكننا عرفنا الآن بعد التقدم العلمي بأنها ليست ضبابًا ولكنها دخان، لأن الضباب خامد وبارد، والدخان حار وفيه حركة، وهذا يدل على أن السماء كانت دخانًا، وقال إنني متأثر جدًّا باكتشاف هذه الحقيقة في القرآن.

وإذا كنا نريد أن نمضي في التفاصيل - ليقتنع من لم يقتنع - فإننا نستعرض بسرعة بعض ما قاله أشهر علماء العالم في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم الدكتور «استروخ» من أشهر علماء وكالة «ناسا» الأمريكية للفضاء.

قال: «لقد أجرينا أبحاثًا كثيرة على معدن الأرض وأبحاثًا معملية، ولكن المعدن الوحيد الذي يحيِّر العلماء هو الحديد، فقدرات الحديد لها تكوين مميز.

إن الإلكترونات والنيترونات في ذرة الحديد لكي تتحد محتاجة إلى طاقة هائلة تبلغ أربع مرات مجموع الطاقة الموجودة في مجموعتنا الشمسية، ولذلك لا يمكن أن يكون الحديد قد تكوَّن على الأرض، ولابد أنه عنصر غريب وَفَدَ إلى الأرض ولم يتكون فيها».

فلما ترجموا له معنى الآية الكريمة: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[1]. قال: «إن هذا الكلام لا يمكن أن يكون من كلام بشر».

وبعد ذلك بدأ فضيلة الشيخ رحمه الله في إخراج بعض الكنوز واللآلئ من أعماق البحار فيقول فضيلته مدللًا من البحار على وجود الله:

«فإذا تركنا السماء وأسرارها، ونزلنا إلى أعماق البحار- وجدنا شيئًا عجيبًا..

- إن الصورة الحديثة التي التقطت للبحار قد أثبتت أن بحار الدنيا ليست موحدة التكوين، بل هي تختلف في الحرارة والملوحة والكثافة ونسبة الأكسجين، وفي صورة التقطت بالأقمار الصناعية ظهر كل بحر بلون مختلف عن البحر الآخر، فبعضها أزرق قاتم، وبعضها أسود، وبعضها أصفر. وذلك بسبب اختلاف درجات الحرارة في كل بحر عن الآخر.

وإذا قرأنا قول الله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[2].

نجد أن وسائل العلم الحديثة قد وصلت إلى تصوير البرزخ بين البحرين، وبيَّنَت معنى «لا يبغيان» بأن مياه أيِّ بحرٍ حين تدخل إلى البحر الآخر عن طريق البرزخ- فإنها تأخذ وقت دخولها خصائص البحر الذي تدخل له، فلا تبغي مياه بحر على مياه بحر آخر فتغيرها.

---

(١) الحديد: ٢٥.

(٢) الرحمن: ١٩-٢٠.

البروفيسور شرايدر

ولقد تم الوصول إلى هذه الحقائق بعد إقامة مئات من المحطات البحرية، والتقاط الصور بالأقمار الصناعية، والذي قال هذا الكلام هو البروفيسور «شرايدر» من أكبر علماء البحار بألمانيا الغربية، الذي كان يقول في أول كلامه: «إذا تقدم العلم فلابد أن يتراجع الدين»، ولكن عندما سمع معاني آيات القرآن بُهت وقال: «إن هذا لا يمكن أن يكون كلام بشر».

البروفيسور دورجاروا

ويأتي البروفيسور «دورجاروا» أستاذ علم جيولوجيا البحار ليعطينا ما وصل إليه العلم في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1].

فيقول: لقد كان الإنسان في الماضي لا يستطيع أن يغوص بدون استخدام الآلات أكثر من عشرين مترًا، ولكننا نغوص الآن في أعماق البحار بواسطة المعدات الحديثة- فنجد ظلامًا شديدًا على عمق مائتي متر.

(١) النور: ٤٠.

الآية الكريمة تقول: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1]، وأعطتنا اكتشافات أعماق البحار صورة لمعنى قوله تعالى: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، فالمعروف أن ألوان الطيف سبعة منها: الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر والبرتقالي» إلى آخره، فإذا غصنا في أعماق البحر تختفي هذه الألوان واحدًا بعد الآخر واختفاء كل لون يعطي ظلمة فالأحمر يختفي أولًا ثم البرتقالي ثم الأصفر... وآخر الألوان اختفاءً هو اللون الأزرق الذي يختفي على عمق مائتي متر وكل لون يختفي يعطي جزءًا من الظلمة حتى تصل إلى الظلمة الكاملة.

أما قوله تعالى: ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ...﴾ فقد ثبت علميًّا أن هناك فاصلًا بين الجزء العميق من البحر والجزء العلوي وأن هذا الفاصل مليء بالأمواج فكأن هناك أمواجًا على حافة الجزء العميق المظلم من البحر وهذه لا نراها، وهناك أمواج على سطح البحر وهذه نراها، فكأنها موج من فوقه موج، وهذه حقيقة علمية مؤكدة.

ولذلك قال البروفيسور «دورجاروا» عن هذه الآيات القرآنية: إن هذا لا يمكن أن يكون علمًا بشريًّا.

---

(١) سورة النور آية: ٤٠.

أما عن الجبال وأسرارها وكيف نستدل بها على وجود الخالق العظيم فيحدثنا فضيلته فيقول:

«وقد أكدت العلوم الحديثة أن للجبال جذورًا عميقة في الأرض، وهو ما لم يكن معروفًا، ففي كل الخرائط الجغرافية تظهر الجبال بلا جذور ممتدة داخل الأرض، ولكن الصور الأخيرة التي التقطت للجبال ظهرت فيها أن لكل جبل وتدًا يقويه، يسميه العلماء جذرًا، وأن هذا الجذر يمتد إلى أعماق بعيدة، وهكذا ظهر إعجاز الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾[1].

ثم جاءت حقيقة أخرى في قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾[2].

وقد فسرت «أدنى» على أساس أنها قريبة من أرض العرب، فقد حدثت المعركة قرب بيت المقدس، وجاءت الخرائط الجيولوجية التي صورت أخيرًا بالأقمار الصناعية لتثبت أن المنطقة التي دارت فيها المعركة هي أكثر الأماكن انخفاضًا على سطح الأرض، وأدنى تعني المكان المنخفض.

إلى هنا وقد أوردنا عددًا من الأبحاث التي تمت في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، والتي شارك فيها عدد من أكبر علماء العالم في مختلف فروع العلم

---

(١) النبأ: ٦-٧.

(٢) الروم: ٢-٣.

من غير المؤمنين، والذين شهدوا جميعًا أن الآيات القرآنية التي قرئ عليهم معانيها- لا يمكن أن تكون إلا من وحي إلهي، ومن خالق هذا الكون.

ومن هنا نقول للناس جميعًا:

إنه يكفي كل ما قلناه كأدلة علمية على وجود الله، وقد جاءت كلها من أفواه الذين لا يؤمنون، لكنهم رفضوا الإيمان حتى بعد أن سمعوا هذا الإعجاز القرآني.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد استخدم غير المؤمنين في إثبات قضية الإيمان- فلابد أن نعلم أن المؤمن والكافر كليهما يخدم قضية الإيمان في الكون.

* * *

الفصل الثاني: الإنسان

من الدلائل على وجود الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان التي تتجلى في أعضاء جسده فليس عند البشر من المصنوعات ما يستحقّ أن يُقابَل بأعضاء جسد الإنسان في الكمال والدقّة والإتقان.

دلالة الجنين على وجود الله

إن الاستدلال بخلق الإنسان لقي عناية خاصة وبالغة في القرآن، وقد أنكر الله على من ترك التبصر والتفكر في خلق النفس الإنسانية، فقال ﷻ: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[١].

بل قد صرح بعض العلماء بوجوب النظر في خلق الإنسان أخذًا من قوله ﷻ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾[٢].

ويقول العلماء رحمهم الله: "الاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها "، ولعل أكثر ما يلفت النظر في ذكر دلالة خلق الإنسان في القرآن كثرة الاستدلال بأطوار خلقه ومراحل نشأته وحياته إجمالًا وتفصيلًا،

---

(١) الذاريات: ٢١.

(٢) الطارق: ٥.

فقد جاء ذكرها إجمالًا كما في قوله ﷻ: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾(1).

وجاء مفصلًا كما قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾(2).

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(3).

ومن آيات عظمة الخالق التي تدل علىٰ وجوده وهيمنته وسيطرته علىٰ دقائق هذا الكون الفسيح الذي يحتوي السمٰوات والأرض بما فيهن من مجرَّات مُتباعِدة - وكل مجرَّة تحتوي علىٰ ملايين من المجموعات الشمسية المشابهة لمجموعتنا الشمسية من شمس وكواكب وأقمار.. ورغم أنه تعالىٰ أخبرنا في كتابه الكريم بأن خلق السمٰوات والأرض أكبر من خلق أنفسنا إلا أنه تعالىٰ دلنا علىٰ أن أقرب طريقة لنتيقن من معرفته وعظمته وجلاله وإبداعه في خلقه بأن ننظر في خلق أنفسنا ونتبصر.. فإذا توصلنا إلىٰ دقائق صُنعِهِ في خلقنا وَجِلَتْ قلوبنا

---

(1) الزمر: 6.

(2) المؤمنون: 12-14.

(3) الذاريات: 20-21.

لجلال الله وخشعت أنفسنا لعظمته تعالىٰ.. يقول المولىٰ القدير: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[1] فننظر ونتبصر في خلق أنفسنا وفي أهمية ووظيفة كل عضو وجزء من أجسامنا التي عليها تسير حياتنا منذ ولادتنا وحتىٰ اليوم فسنرىٰ عجبًا.. ونتعجب أكثر عندما نتساءل كيف تَخلّقت فينا كل هذه الأعضاء والأجزاء ونحن كنا أجنة في بطون أمهاتنا في ظلمات ثلاث مصداقًا لقوله تعالىٰ: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[2] وهذه الظلمات الثلاث كما اكتشفها العلم الحديث.. الأولىٰ هي ظلمة الغشاء الذي يحتوي منذ البداية النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم العظام ثم تطور الجنين في كل مراحله حتىٰ الولادة وهي (المشيمة).. والثانية هي ظلمة جدار الرحم.. والثالثة هي ظلمة الطبقة الخارجية لبطن الأم.

كيف تخلقت الخلايا من النطفة ثم استمرت عملية انقسامها وتكاثرها في هذه الظلمات لكي يتخلق منها الهيكل العظمي والرأس والأذنين والعينين والأنف والفم واللسان.. والمخ.. والقلب.. والمعدة.. والرئتين.. والكبد.. والكليتين.. واليدين.. والرجلين؟

---

(١) الانفطار: ٦ – ٨.

(٢) الزمر: ٦.

إن ما كشفه العلم يقينًا وصوَّره وعرض علينا صوَرَه- هو أن علـم الأجنـة لم يعرفه العالم بشكل واضح إلا في القرن العشرين.

ففي القرن السابع عشر كان العلم يقول: إن الإنـسان يخلـق خلقًـا كـاملًا في الحيوان المنوي للرجل على صورته الإنسانية، أي أنك إذا أخذت الحيوان المنوي واستطعت أن تكبره وجدت فيه الإنسان كاملًا بكل تفاصـيله، ومعنـى هـذا أن الإنسان لا يخلق على أطوار في بطن أمه، بل يخلق مرة واحدة.

وفي القرن الثامن عشر تغيرت الصورة عندما اكتشفوا بويـضة المـرأة، وركـز العلم على دور المرأة في الحمل وأهملوا دور الرجل، وقالوا إن بويضة المـرأة هـي التي فيها الإنسان الكامل؛ لأنها الأكبر، وأن نطفة الرجل هي مجرد عملية تلقيح.

وظل هذا الرأي سائدًا حتى القـرن العـشرين، وجـاء العلـم الحـديث ليغـير الصورة تمامًا، ويعطينا صورة جديدة للجنين في بطـن أمـه، ويـأتي بـصور تثبـت ذلك، حتى إن العملية أصبحت أمرًا يقينيًّـا؛ لأنـه يمكـن تـصوير الجنـين وهـو يتطور وينمو في بطن أمه.

وكان للقرآن الكريم في هذا كلمة، ذلك أن القرآن جاء بوصف دقيق لأطوار الجنين منذ أربعة عشر قرنًا، يوم أن كانت الدنيا كلها بكل من فيهـا ومـا فيهـا لا تعرف شيئًا عما في بطن الأم.

وذكر القرآن لهذه الآيات لا يمكن أن يأتي إلا إذا كان هذا القرآن منزلًا من عند الله؛ لأن محمدًا النبي الأمي ﷺ لم يكن يملك من العلم البشري شيئًا، وحتى لو كان يملك فلم يكن علم البشر يعرف شيئًا.

ولا يمكن أن يخاطر النبي بذكر شيء علمي في القرآن... لماذا؟

لأن القرآن كلام الله الذي لا يتغير ولا يتبدل، والمتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة، فكيف يكون موقف الدين، وموقف المسلمين إذا ذكر في القرآن شيء يمس العلم البشري، ثم جاءت الأبحاث وتقدمت العلوم واكتشفت أن هذا غير صحيح، ولا شك أن هذا الأمر يكون كافيًا لهدم الدين كله.

فماذا قال القرآن الكريم عن أطوار الجنين؟

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾[1].

فهذه الآيات تذكر أولًا أن خلق الإنسان من طين، ومعنى ذلك أنها حددت المادة الأولى التي خُلق منها الإنسان وهي الطين، والطين موجود في كل مكان في الأرض، والعلماء أخذوا الطين وحللوه فوجدوه يتكون من ثمانية عشر

---

(١) المؤمنون: ١٢-١٤.

عنصرًا، منها: الحديد والبوتاسيوم والماغنسيوم... وغير ذلك من المواد، ثم درسوا جسم الإنسان فوجدوه يتكون من نفس هذه المواد الثمانية عشر التي يتكون منها الطين.

وهكذا جاءت الحقيقة الأولى.. حقيقة مشاهدة معملية لا تخضع للجدل.

ثم بدأ القرآن في وصف خلق الإنسان في بطن أمه، فتقول الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾. «والقرار المكين» هو رحم الأم. ثم تأتي مسألة «العلقة».

البروفيسور كيث ل. مور

ونترك الحديث هنا للبروفيسور الكندي «كيث ل. مور» وهو من أشهر علماء العالم في علم الأجنة، ورئيس قسم التشريح والأجنة بجامعة «تورنتور» بكندا..

قال: «إن الجنين عندما يبدأ في النمو في بطن أمه يكون شكله يشبه العلقة أو الدودة، وعرض صورة بالأشعة لبداية خلق الجنين ومعها صورة للعلقة، فظهر التشابه واضحًا بين الاثنين، ولما قيل له: إن العلقة عند العرب معناها الدم المتجمد، ذهل.. وقال: إن ما ذكر في القرآن ليس وصفًا دقيقًا فقط لشكل الجنين الخارجي، ولكنه وصف دقيق لتكوينه؛ ذلك أنه في مرحلة العلقة تكون الدماء محبوسة في العروق الدقيقة في شكل الدم المتجمد.

فإذا جئنا إلى المرحلة الثانية في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾[1].

فإن القرآن الكريم جاء بالوصف الدقيق، فعندما عرضت صورة الأشعة المأخوذة للجنين وهو في مرحلة المضغة، وصورة قطعة من الصلصال أو اللبان الممضوغ- وجد الشكل واحدًا، ثم ظهرت صورة الأشعة التي التقطت للجنين في مرحلة المضغة وجدت فيها تجويفات تشبه علامات الأسنان.

بل إن الله سبحانه وتعالى قد تجاوز مرحلة الشكل الخارجي إلى التكوين الداخلي فقال جل جلاله: ﴿مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[2].

وعندما جيء بالمضغة الآدمية من بطن الأم وطولها سنتيمتر واحد، وتم تشريحها تحت الميكروسكوب الإلكتروني، وجد أن بعض أجهزة الجنين بدأت تتخلق وبعضها لم يتخلق.

ولو أن القرآن الكريم قال مضغة مخلقة- لكان ذلك لا ينطبق على حقيقة التكوين، لأن فيها أجزاء غير مخلقة، ولو قال القرآن الكريم مضغة غير مخلقة- لكان ذلك لا يطابق حقيقة التكوين؛ لأن فيها أجزاء مخلقة، ولكن الوصف الدقيق الوحيد الذي ينطبق على المضغة هو قوله تعالى: ﴿مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾.

---

(١) المؤمنون: ١٤.

(٢) الحج: ٥.

ولقد عرض العالم الكندي كل أطوار الجنين في بطن أمه والتي التقطت بأحدث الأجهزة العلمية، فإذا هي تنطبق تمامًا على كل ما ذكر في القرآن الكريم، من مراحل تكوين العظام واللحم.. إلى غير ذلك.

ولما قيل للدكتور «كيث ل. مور» هل كان من الممكن أن يعرف رسول الله ﷺ هذه التفصيلات عن أطوار الجنين؟

قال: مستحيل، إن العالم كله في ذلك الوقت لم يكن يعرف أن الجنين يخلق أطوارًا، فما بالكم بتحديد مراحل هذه الأطوار التي لم يستطع العلم حتى الآن أن يحددها بهذه السهولة والدقة، بل إن العلم لم يستطع حتى الآن تسمية أطوار الجنين- بل أعطاها أرقامًا بشكل معقد غير مفهوم، في حين جاءت في القرآن بأسماء محددة وبسيطة وغاية في الدقة، ومن هنا يتضح لنا أن هذه الأدلة جاءت حتمًا لمحمد من عند الله تعالى، وهذا يثبت لي أن محمدًا رسول الله.

فقيل له: بعد أن قلت ما قلت... أفلا تسلم؟

فقال إنني مستعد أن أضع في الطبعات القادمة من كتبي إشارة إلى ما علمت.

ولقد قرئ معنى الآيات التي جاءت في القرآن الكريم على أكبر علماء الأجنة في العالم- فلم يجرؤ واحد منهم أن يدعي أن هناك تصادمًا بين ما جاء في القرآن الكريم وأحدث ما وصل إليه العلم.

وعندما عرض معنى هذه الآيات على البروفيسور التايلاندي (تاجات جاسن) وهو من أكبر علماء التشريح قال: أهذا الكلام قيل منذ أربعة عشر قرنًا؟

قالوا: نعم.

قال: إن هذه الحقيقة لم يعرفها العلم إلا حديثًا، ولا يمكن أن يكون قائلها بشرًا، بل هي من الله سبحانه وتعالى، ولقد حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

وتعالوا معي ننظر في كيفية تركيب وعمل بعض هذه الأعضاء والأجزاء التي ذكرناها.. فإذا نظرنا إلىٰ:

العينين:

العينين بكل ما فيهما من تعقيدات وكيف تشكلت وتخلقت داخل ظلام الرحم متكونة من دم الأم الذي تغذي به الجنين فتكونت من هذه الدماء حِزَمٌ بصرية دقيقة داخل شبكية تتألف من ملايين المخاريط البصرية المتصلة بالمخ لتحقيق وترجمة ما يقع أمام عدسة العين من أضواء تُبَيّنْ الأشكال والأبعاد والألوان إلىٰ صور واضحة إلىٰ المخ بشكل يفوق أعظم الكاميرات التليفزيونية بدون أدنىٰ مقارنة علىٰ الإطلاق.. مما يعني أنه لو اجتمع علماء البصريات كلهم في العالم واستخدموا أحدث مخترعاتهم في مجال صناعة الكاميرات والبصريات من الأجهزة العلمية الحديثة والمتطورة لهذه الصناعة ما استطاعوا إنتاج كاميرا

تلفزيونية واحدة تضاهي ربع ما للعين البشرية التي خلقها الله من إمكانات فائقة وتعقيدات مُعجزة ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.. بينما خلق الله تعالىٰ هذه العين بكل تركيباتها المعقدة داخل ظلمات حالكة عالمًا- سبحانه- بما سيئول إليه أمر هاتين العينين بعد خروجهما إلىٰ الضوء وقوانينه وأبعاده.. وكيف ستتسع البؤبؤة تلقائيًا عندما تواجه ضوءًا خافتًا.. وكيف ستضيق وتصغر عندما تواجه ضوءًا حادًا وباهرًا.. فلا نملك إلا أن نقول سبحان ربنا الخالق العظيم.

الرئتين والجهاز التنفسي:

وهكذا خلق الله تعالىٰ الرئتين والجهاز التنفسي لدىٰ الجنين في رحم أمه.. وهو في تلك المرحلة من التخلّق لم يكن يحتاج إلىٰ التنفس ولم يتدرب عليه.. ولكن الخالق العظيم يعلم أن ذلك الجنين سيحتاج إلىٰ ذلك الجهاز التنفسي بإلحاح فور خروجه إلىٰ الحياة حين يكون الهواء مُحيط به من كل جانب فيتنفس وإلا أصيب بالاختناق فيموت، بينما لم يكن يتنفس بواسطته وهو داخل رحم أمه ولم يُصب بالاختناق.. مُعجزة من المعجزات الكثيرة للخالق العظيم سبحانه.

البصر:

وكذلك البصر حينما سيجد الأضواء مواجهة له فيرىٰ.

الأذنين:

وكذلك الأذنين حينما تتردد ذبذبات وأمواج الأصوات من حوله فيسمع.. ويعلم المولىٰ عز وجل أن هذا الجنين وهو في رحم أمه أنه سيكون في أمس الحاجة إلىٰ كل تلك الأجهزة المعقدة التركيب البالغة الدقة والاتزان في أداء وظائفها حال خروجه من هذا الرحم ومواجهة الحياة فجهزه بها وهو يتخلق في رحم أمه لا يعلم شيئًا.. وهكذا قال المولىٰ عز وجل في كتابه الكريم ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾[١].

القلب:

وإذا نظرنا إلىٰ قلب الإنسان نتعجب من عمله الدؤوب.. ولا نتعجب من أمر الله القادر علىٰ كل شيء.. فهذا القلب أو هذه المضخة العجيبة التي تضخ الدم إلىٰ سائر الجسم بمعدل (٧٠) دفقة في الدقيقة وبشكل مستمر من غير توقف ولا ملل ولا كلل مدىٰ حياة الإنسان، فإذا حسبنا افتراضًا شخصًا عمره سبعون عامًا فهذا معناه أن القلب يكون قد نبض خلالها (٢٬٤٧٥٬٤٤٠٬٠٠٠) ألفين وأربعمائة وخمسة وسبعون مليون وأربعمائة وأربعون ألف نبضه.. وذلك

---

(١) النجم: ٣٢.

في شكل مستمر ليضخ الدم عبر أوردة وشرايين وشعيرات دموية في الجسم تبلغ أطوالها آلاف الأميال، ولو اخترع علماء الأرض اليوم مضخة بديلة حتىٰ وإن عملت بالطاقة النووية لكي تنبض وتضخ بشكل مستمر سبعين عامًا لا يمكنها الاستمرار في العمل دون أن يُصيبها خلل أو عطب فيقوموا بإصلاحه.. فنقول سبحان الله ربنا الخالق العظيم في لطيف إبداعه.

المخ:

وإذا نظرنا إلىٰ تكوين ووظائف مخ الإنسان نرىٰ عجبًا ونذهل ولا نفيق من ذهولنا لهذه المعجزة الكبرىٰ من خلق الله تعالىٰ.. ففي هذا الموقع من رأس الإنسان خلق الله المخ مكون من عدة أقسام - قسم للذاكرة - وقسم للتبصر والتفكير واتخاذ القرارات - وقسم للتحكم وتنظيم عمل أعضاء وأجهزة الجسم كاملة - وقسم لترجمة كل ما يصل إلىٰ المخ من الحواس الخمس، السمع من الأذنين، والبصر من العينين، والشم من الأنف، والتذوق من اللسان، واللمس من كافة بشرة الجسم الخارجية.. ويحتوي مخ الإنسان علىٰ مليارات من الخلايا الثابتة التي لا تموت ولا تتغير ولا تتبخر مثل باقي خلايا أعضاء وأقسام جسم الإنسان التي تتجدد باستمرار بدوام التغذية المكتملة العناصر.. وهذه الخلايا الثابتة في مخ الإنسان لا تتلف ولا تموت إلا إذا مات الإنسان أو إذا أصابها مرض يتلف الخلايا.. أو أنها تَبْلَىٰ تلقائيًّا مع تقدم العمر في الطاعنين بالسن مثلما يحدث في القسم الخاص بالذاكرة التي يكثر تلفها مع تقدم العمر فيبدأ الإنسان

بضعف الذاكرة ويستمر هكذا حتىٰ يفقدها كلية وهو ما يسمونه حاليًا بمرض (الزهايمر) لدىٰ كبار السن.. وقد أوضحها لنا خالقنا العظيم في موقعين من القرآن في قوله تعالىٰ من سورتي النحل والحج: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[1]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾[2] وهكذا مَنْ تبدأ خلايا الذاكرة لديه في التلف يرجع لا يعلم من بعد علم شيئًا.. أي يفقد كل ما خزنته ذاكرته من علوم ومعارف وذكريات.. وقد اعترف أحد مصممي العقول الإليكترونية- الكمبيوتر- حينما اكتشف بالدراسة والبحث الدقيق في كيفية عمل ذاكرة الإنسان وعمل مقارنة بين قدراتها وقدرات ذاكرة أضخم جهاز كمبيوتر في العالم من حيث الإمكانيات والتقنيات التي تمكنه من إنجاز ملايين العمليات الحسابية في الدقيقة الواحدة وهو الجهاز المركب في البنتاجون؛ أي وزارة الدفاع الأمريكية فوجد أنه لا يساوي في قدراته التقنية ربع ما لذاكرة مخ إنسان واحد متوسط الذكاء من قدرات وإمكانيات.. فإنك وبقدرة وإبداع

---

(١) النحل: ٧٠.

(٢) الحج: ٥.

الخالق العظيم وأنت في سن الأربعين تستطيع في لحظة واحدة أن تستدعي من ذاكرتك صورة حادثة وقعت لك أو أمام عينيك منذ الطفولة فستحضر ذاكرتك في مخيلتك مشهد الحادثة بالصوت والصورة وكأنك ترىٰ أشخاصها بألوان ملابسهم وتسمع أصواتهم في مُخَيّلتك تمامًا كما حدثت قبل ثلاثين عامًا..

فهل يوجد حتىٰ اليوم جهاز كمبيوتر يُخَـزِّن في ذاكرته معلومات وأحداث مصورة بالفيديو. ملايين الأحداث والمشاهد منذ عشرات السنين ثم في لحظة واحدة تستدعي منه أن يعرض أمامك علىٰ شاشته حادثة خُزِّنَتْ في ذاكرته منذ أربعين عامًا مثلًا، وقد تراكمت عليها من بعدها مئات الآلاف من التسجيلات من الأحداث والمشاهد؟

لا.. ولم يوجد حتىٰ اليوم مثل هذا العقل الإليكتروني الذي يستحضرها لك في لحظة؛ ذلك لأنه يحتاج منك أولًا أن تزوده بالرموز الكافية ومفتاح الدخول علىٰ الذاكرة، فيقوم بعملية البحث التي تستغرق منه عدة ثوان حتىٰ يستحضرها لك، كما لا يستطيع أن ينتقل بك من مشهد إلىٰ ثان وقع في زمن آخر بنفس السرعة التي يعمل بها العقل البشري.. كما أنه لا يستطيع أن يُفكر لك ويُعطيك القرارات الصحيحة بنفس السرعة التي يفكر بها عقلك، ولا يستطيع في نفس الوقت أن يخترع لك جهازًا آليًّا أو إليكترونيًّا بينما العقل البشري هو الذي اخترعه، أي جهاز الكمبيوتر نفسه، وهذا مما يدل علىٰ تفوقه عليه.. كما لا يستطيع أن يستشعر لك حواسك من حولك، فإذا برد جو المكان فَيُسرِع ويقول

لك: ارتدي ملابس ثقيلة لأن الجو بارد قبل أن تخرج إلىٰ الشارع.. بينما العقل أو المخ البشري يقوم في وقت واحد بكل هذه الوظائف في سرعة عجيبة وكما شرحنا عبر أقسامه التي سبق وعددناها وهم: قسم الذاكرة، وقسم التفكير واتخاذ القرارات، وقسم تنظيم عمل أعضاء الجسم، وقسم ترجمة ما يصل إليه من الحواس الخمسة.. فلا نملك إلا أن نُسِّلمَ بقدرة وعظمة الخالق العظيم والمبدع والمعجز في خلقه ربنا جل وعلا شأنه ونقول: سبحانك ربنا جلّتْ عظمتُكْ وقدرتك عما يشركون، ولو أننا أردنا استعراض معجزات وقدرات وإمكانيات ووظائف وفوائد باقي أعضاء الجسم البشري فإن ذلك لن يسعه مجلدات ضخمة ولا تفي أو كما قال المولىٰ عز وجل: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(1).

هذا عن دلالة الجنين على وجود الله فماذا عن دلالة البالغ على وجوده سبحانه وتعالى؟

دلالة الإنسان البالغ على وجود الله:

... أخي القارئ الحبيب بعد أن قرأت وتأملت أحوال الجنين وتعرفت على قدرة الصانع المبهر ومن باب قول الحق سبحانه: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا

(1) إبراهيم: ٣٤.

تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1] هيا معي لنرى ونتعرف على قدرة الله سبحانه وتعالى في خلق الإنسان البالغ.

دلالة العقل:

لقد زوّد الله الإنسان بعقل من دون سائر المخلوقات الحيّة، والثابت أنّه لم يوجد مخلوق حيّ غير الإنسان يستطيع أن يعدّ من واحد إلى عشرة، لذلك يجب أن نشكر الله لأنّه منحنا العقل، الذي بواسطته ندرك الأشياء ونحلّلها، وبه نستطيع أيضًا أن نفكّر بأنّ لنا إلهًا كُلِّيَ الحكمة والقدرة .

ومن البديهيّ أنّ قدرة عقل الإنسان على تصوّر ما هو غير منظور لدليل على وجود الله، لأنّ تصوّر الله ينبعث في الإنسان عن طريق مَلَكة إلهيّة كامنة فيه، لا يشاطره فيها مخلوق آخر على الأرض. وبما أنّ التصوّر عند الإنسان، يصبح في سموّه حقيقة روحيّة في البشر، صار ميسورًا للإنسان أن يرى من الكون وما فيه أنّ الله موجود.

دلالة العين:

فالعين مثلًا أكمل من جميع آلات النظر التي صُنعت، في مطابقتها لقوانين الضوء، لأنّ فيها عصبًا منتشرًا في شبكتها يشعر بالنور والألوان، ويدخل النور العين من الحدقة، وهذه تضيق إذا كثر وتتّسع إذا قلّ. وفعلها هذا ضروريّ

---

(١) سورة الذاريات آية: ٢١.

لتعديل البصر وهو يعمل آليًا دون خضوع للإرادة. مجرّد دخول النور من ثقب ما لا يكفي لرسم صور المرئيّات رسمًا واضحًا، بل لابدّ من مروره في بلّورة محدّبة لكي تنكسر أشعّته وتتجمّع في بؤرة. وهذان الشرطان متوفّران في العين .

ثمّ لو كان باطن العين أبيض، لانعكست أشعّة النور، وتشوّش البصر، فدفعًا لذلك بُطِّنت العين ببطانة سوداء .

وفي العين- فضلًا عن ذلك- عضلات مخصوصة تحكمها لنظر ما هو قريب وما هو بعيد، بسرعة مدهشة. كلّ هذا يظهر حكمة الله الفائقة في إعداد الوسائط لنوال الغاية المقصودة على منوالٍ يفوق كلّ ما في أعمال البشر.

دلالة الأذن:

والأذن، آلة عجيبة في كمالها. ففيها عصب السمع من الباطن، وآلة مموّجة اسمها الصماخ. هذه تحمل الموجات الهوائيّة إلى غشاء رقيق يُسمّى الطبلة .وهذا الغشاء يهتّز بتموّج الهواء. وداخلها عظيمات دقاق تنقل التموّجات إلى العصب السمعيّ، فينقلها هذا إلى عقدة السمع في الدماغ. ومن المعلوم أنّ معظم معاملات الناس تتمّ بواسطة هذه الآلة العجيبة، التي يتوقّف عليها السمع وتعلّم النطق .

ولو أخذنا أعضاء جسد الإنسان واحدًا فواحدًا، لوجدنا أنها رُكِّبت بصورة عجيبة، بالغة الدقّة والكمال للقيام بوظائفها، ممّا يدلّ على حكمة الخالق العظيم وقدرته في صنع الأشياء .

علامات القصد عند الطفل حين ولادته:

حياة الإنسان تتوقف على الأوكسجين الذي يتنفسه، وبحسب ذلك، يولد الطفل مجهزًا بآلة التنفس مع أنه لم يكن في حاجة إليها قبل ولادته. وهي في غاية الدقّة والإتقان، لتنقية الدم قبل توزيعه في كلّ أعضاء الجسم. وأيضًا قبل الولادة لا يحتاج الجنين إلى طعام ولكنّه حين يولد يصير محتاجًا إليه، ولذلك صنع الخالق جهاز الهضم، بأجزائه الكاملة. وكذلك قبل ولادته، لا يحتاج الطفل إلى أعضاء للمشي والعمل، ولكنّ الخالق كوَّنها له قبل أن يولد، وفقًا لحاجته بعد الولادة، وهي مكوّنة من عظام ومفاصل متنوّعة، لكي تتحرّك تمشّيًا مع حاجته في المستقبل. ممّا يدلّ على حكمة هذا الخالق العظيم.

دلالة الجلد:

ولنا أن نتأمل في الآية الكريمة: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾[1].

---

(١) النساء: ٥٦.

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الله سبحانه وتعالى لم يلفتنا إلى أنه كلما احترقت جلود أهل النار بدلهم غيرها؟ أكان من الممكن أن نعرف كيف سيستمر عذاب أهل النار بلا توقف ولا يخفف عنهم؟

لقد أظهرت الحقيقة العلمية أن الأعصاب موجودة تحت الجلد، وأنه إذا احترق الجلد لا يحس الإنسان بالألم، فلو ذكرت هذه الحقيقة دون أن يبين لنا القرآن الكريم كيفية استمرار العذاب وهو تبديل جلود أهل النار فقال الكفار العاصون سنعذب فترة قصيرة حتى تحترق جلودنا ثم بعد ذلك لا نحس بأي عذاب أو ألم، ولكان هذا تشجيعًا للإنسان على الاستهانة بعذاب الله في الآخرة؛ لأنه لن يستمر العذاب إلا لفترة قصيرة يحترق فيها الجلد وينتهي العذاب، ولوجد هناك تصادم بين القرآن الكريم والحقائق العلمية- في أن الكفار سيخلدون في عذاب جهنم، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾[1].

و«لا يفتر» معناه لا يخفف. فمن الذي أبلغ رسول الله ﷺ بهذه الحقيقة العلمية حول الإحساس بالألم، وهذا ما لم يعرفه البشر إلا حديثًا؟ ألا يكفي هذا كدليل مادي على أن القرآن الكريم من عند الله؟ ألا يكفي هذا أيضًا كدليل مادي على أن الذي خلق هو الذي قال؟

(١) الزخرف: ٧٤-٧٥.

وإذا كان هذا قد دفع عالمًا من أكبر علماء علم التشريح- وهو العارف بأسرار هذا العلم- أن يعلن إسلامه أمام الناس في مؤتمر عام، وقد بهره الإعجاز الإلهي، ووجد بين يديه الدليل المادي على وجود الله فنطق بالشهادتين.

ألا يكفي هذا ليؤمن العالم كله، ويؤمن أهل الأرض جميعًا؟

* * *

المشي على رجلين مع الوضع القائم:

خلق الإنسان في أحسن تقويم:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ﴾[1]، وقال: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[2].

وقد كان النبي ﷺ يكرر هذا الدعاء في سجوده: «**سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره وشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين**».

ومن عناصر التقوم الأحسن، الذي خلق الله الإنسان عليه، والذي يعد مفتاحًا لفهم الكثير من المزايا التي تفرد بها بين مخلوقات الله، أنه يمشي على رجلين، مع الوضع القائم المنتصب للجسم، واعتدال قامته، والإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يقف ويمشي منتصبًا ورأسه فوق رجليه تمامًا. ويعتمد

---

(١) التين: ٤.

(٢) التغابن: ٣.

هذا على توازن دقيق في الجسم تسهم فيه الانحناءات الخفيفة في العمود الفقاري أمامًا وخلفًا، مع توزع الأحشاء الداخلية توزعًا منتظمًا حول محور ثقل الجسم، وتستقر الجمجمة فوق العمود الفقاري القائم عند وسط قاعدتها، ولا تتصل به عند مؤخرتها، كما هي الحال في القردة. والعجيب أن هذا الوضع القائم الذي تعجز عنه المخلوقات الأخرى، لا يكلف الإنسان جهدًا عضليًّا كبيرًا، وذلك راجع إلى هندسة بنائية تهيئ للجسم أن ينتصب ومعظم العضلات المحيطة بالوركين مرتخية مرتاحة.

وبعض «أشباه الإنسان» يمشي أحيانًا على اثنتين، ولكنها لا تكون منتصبة القامة، كما أن تباعد رجليها يجعلها تتأرجح يمنة ويسرة، أما في الإنسان فيتقارب عظما الفخذ؛ لتتقارب القدمان، وبذلك يصبح هذا التأرجح قليلًا للغاية، وتساعد الذراعان على حفظ التوازن وتقليل الجهد المبذول، وذلك بتبادلهما الحركة أمامًا وخلفًا مع الرجلين، ورِجْلا الإنسان قويتان ومزودتان بعضلات كبيرة قوية، حتى تستطيعا تحمل ثقل الجسم كله فوقهما، وكذلك هما أطول نسبيًّا؛ إذ إنهما نصف قامة الإنسان، في حين أنهما ثلث قامة القردة العليا.

والوضع القائم والمشي على قدمين حررا الذراعين تمامًا من مهمة حمل الجسم ونقله وهذه نعمة كبرى، فقد استطاعت اليدان أن تستجيبا للدماغ الراقي، وازدادت الإبهام القابضة مقدرة على الحركة أمام سائر الأصابع، ويد الإنسان قادرة على الإتيان بحركات لا حدود لها، ولكن تتميز فيها قبضتان: قبضة قوية بضم

الأصابع على راحة اليد، قادرة على الرفع والدفع والشد والثني والضرب والبطش، وقبضة دقيقة بين الإبهام وأطراف الأصابع، بعضها أو كلها. وهكذا أصبحت اليد قادرة على اصطناع حضارات الإنسان وتسجيلها. ووجود العضلات المحركة للأصابع في الساعد لا في اليد، محركة إياها بأوتار ممتدة إليها. جعل اليد مرنة دقيقة رشيقة، وزاد أصابعها مقدرة على الإتيان بمختلف الحركات.

وذراعا الإنسان طولهما مناسب تمامًا، فلا هما طويلتان متدليتان، كما هي الحال في القردة التي تتسلق وتتعلق بذراعيها، ولا هما قصيرتان عاجزتان، كما في القردة التي تمشي قافزة على رجليها الخلفيتين.

والوضع القائم وتحرر الذراعين واليدين قد ساعدا أيضًا على تحرر الرأس والوجه وإعفائهما من أن يندسا في القاذورات لتناول الطعام والبحث عنه، فهما قد هيَّأا للرأس ذلك الوضع المستقر الرفيع فوق الجسم، وللوجه ذلك الوضع الكريم المستشرف المستكشف، وفتحًا للحواس، وبخاصة العينان، مجالًا واسعًا لمراقبة البيئة وجمع المعلومات، ووضع الوجه أكسبه ذلك التناسق الجميل في صورة الجبهة دون بروز كبير فوق حجاج العين[1]، مع فكين ر شيقين ليس فيهما زوايا حادة ومزودين بأسنان صغيرة منتظمة، وليسا في حاجة إلى عضلات غليظة. ونظرًا لكبر علبة الدماغ وصغر الفكين تحلى الإنسان بفم مناسب ووجه أصغر وأجمل مع بروز مناسب للأنف والذقن والأذنين.

---

(١) الحجاج من كل شيء حرفه وناحيته (المعجم الوسيط مادة حجج).

هذه لمحات من بديع صنع الله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم.. فتبـارك الله أحسن الخالقين.

دلالة الوجدان: . .

من المسلّم به أنّ الإنسان ينفرد عن سائر المخلوقات الحيّة بوجود الوجدان في نفسه، فهذا الشعور الكامن في أعماق الإنسان كان وما زال يتحدّث عن وجـود الله. ومهما اختلف الناس في أحوالهم المعيـشيّة والاجتماعيّـة والفكريّـة، فمـمّا لا شكّ فيه أنّ وجدانهم الدينيّ ملازم لهم ولا يمكن أن يزول وإنه لمن أكبر الأدلـة على وجود الله .

دلالة الشفرة الوراثية: . .

يقول: أ.د. زغلول النجار:

منذ بضع سنوات وتحديدًا في (٢٦/ ٦/ ٢٠٠٠) أتم الإنـسان قـراءة الـشفرة الوراثية للإنسان وهي أمر معقد للغاية، وأبدع ما في هذه الشفرة الوراثيـة أن مـا بها من كروموسومات تتكون من الحمض النووي، والحمـض النـووي مركـب مبهر في تعقيده، تبلغ عدد المركبات الكيميائية في جزيء الحمض النووي ٦ ,١٨ بليون قاعدة كيميائية لو اختل وضـع واحـدة منهـا لانهـار هـذا النظـام وتـشوه تشوهًا عظيمًا، هذا الحمض النووي أعطاه الله القدرة على الانقسام بطريقة ذاتية، ويكـرر نفـسه باسـتمرار، ومـن آيـات الله في الخلـق أن الكائنـات التـي تتكـاثر

بالتزاوج، مثل الإنسان والله تعالى جعل في كل خلية من جسد هذه الكائنات عددًا محددًا من الصبغيات؛ جعل الله للإنسان ٤٦ كروموسومًا- صبغيًّا- في ٢٣ زوج من الأزواج، كل خلايا جسد الإنسان فيما عدا بعض الخلايا القليلة- خلايا الدم الحمراء- تحمل كروموسومات، وكل خلية تحمل هذا العدد المحدد، وهو عدد محدد النوع لا يختل ولا يتوقف ولا يتعطل، إلا الخلايا التناسلية، تحمل نصف العدد، وحين تتحد البويضة مع الحيوان المنوي يكتمل العدد لأن كل منها يحتوي على نصف العدد من الصبغيات، هذه الطريقة في التكاثر جعلت الذرية تأتي على قدر من الاختلاف مع الوالدين وقدر من التشابه أيضًا.

هذه الطريقة أثبتت للعلماء أن أبا البشر سيدنا آدم ﷺ، والسيدة حواء عليها السلام كانا يحملان في أصلابهما كل البشرية التي عاشت والتي ماتت والتي تعيش حاليًا والتي ستأتي في المستقبل فالذرية تحمل في الشفرة الوراثية للإنسان بكل صفاتها وبكل أبعادها، فكل الخلق الموجودين حاليًا والذين سيأتون في المستقبل والذين عاشوا على الأرض عبر الزمن وعبر آلاف مؤلفة من السنين هم من صلب أبينا آدم على هيئته شفرة وراثية موجودة، ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ تلك الأعداد القليلة التي حملت على المركب مع نوح كانت في أصلابها كل الشفرات الوراثية لكل الأبناء والبنات والأنسال التي جاءت من بعد نوح ﷺ والذين كانوا على هذا المركب.

فهذه الآية الكريمة تحدثت عن أمر مستقبلي، فإنه عندما نزل القرآن اعتقد أنه لم تكن هناك مراكب بحجم المراكب الحالية فهي آية مستقبلية وذلك علم إحاطة

من الله تعالى بأن سيتمكن الناس من بناء هـذه المراكـب الكبـيرة التـي سـتحمل عددًا كبيرًا من الناس... فهذا مما يدل على قدرة الله تعالى.

تُرى لو كانت عينا الإنسان في أعـلى رأسـه أو في أسـفل ذقنـه أو في خديـه أو حتى في قفاه، أكان ذلك أحكم؟! أم كونهما في مكانيهما الحاليين؟ تُرى هل هنـاك جزء من جسم الإنسان كان خليقًا أن يكون أحكم في غير محله؟

لنأخذ اليد مثلًا لتبيان مواطن الحكمة في خلقها: إنه مـن الـصعب تمامًـا إن لم يكـن مستحيلًا ابتكار آلة تضارع يد الإنسان من حيث البساطة والكفاءة وسرعـة التكيـف. فحينما يريد أحدنا قراءة كتاب مثلًا فإنـه يتناولـه بيـده، وبهـا يثبتـه في الوضـع الملائـم للقراءة، ويصحِّح وضعه تلقائيًّا، وحينما يقلب صفحاته يـضع أصـابعه تحـت الورقـة ويضغط عليها بالدرجة التي يقلبها بها، ثم يزول الضغط بقلب الورقـة. واليـد تمـسك القلم وتكتب، وتستعمل الآلة لتصنع، وتقبض عـلى الطعـام لنأكـل، وتمـسك مقـود السيارة لنقود، ونحمل بها ما نريد، ونلـتقط ونلمـس ونـستعملها في تحـسس مـواطن الجمال لننقلها إلى القلب، واليد تتوجها أظفار زينةً لها وحماية. ولوضـع الإبهـام الفريـد بالنسبة لليد؛ حيث يمكنه الحركة على محورها بزاوية قائمة.

* * *

الفصل الثالث: الحيوان

إذا نظرت إلى العالم الحيواني في مبدأ إنشائه ونظرت إلى كيفية تكونه لكفاك في الجزم بأن له فاعلًا مختارًا، واجب الوجود، حكيمًا في صنعه وتدبيره وبيان ذلك:

أن الحيوان إذا تناول الطعام وسلمه لآلة فمه سحقته، ومزج باللعاب ليساعد على الهضم، ثم دفعه إلى معدته وأمعائه، ليحصل له تمام الهضم، بسبب الحرارة والعصارات المفرزة، ومتى تم الهضم تستخلص المادة المغذية، وتنتقل إلى أعضاء سوى المعدة والأمعاء، فتؤدي هذه الأعضاء وظيفتها، فينشأ عن ذلك تطور هذه المادة المغذية إلى أطوار مختلفة، حتى تلبس صورة الدم، فعند ذلك تحصل الدورة الدموية المنظفة لهذا الدم مما علق به، وحينئذ يتوزع ذلك الدم على جسد الحيوان، فيصل إلى كل عضو حصته، وتلبس حصة من هذه الحصص صورة من الحيوان، ومتى حصل التلقيح لبست صورة علقية، ثم مضغية، ثم أخذت تتصور وتتشكل وتنمو أعضاؤها إلى أن يكمل تكوينها، وتصير كالحيوان الذي حلت داخل بنيته تلك الأطوار، وحصلت فيها الحياة الحيوانية الحساسة، فصارت حيوانًا طبق أصله، بصيرًا شامًّا ذائقًا، لامسًا ثم ينفصل من أصله، ويأخذ في السعي على رزقه حسب نوعه، وقد تنمو فيه قوة الإدراك على قدر ما يحتاج إليه في تدبر معيشته، وقد تزيد على ذلك بمراتب حتى يصير ذلك الحيوان عاقلًا عالمًا حكيمًا مدققًا يجول فكره في كل شيء.

لا شك أن الناظر لذلك المصنوع الذي اشترك مع النبات في بعض الخواص، كالنمو والاغتذاء، وقد تولد في الأصل من الماء والطين، ووصل إلى ذلك الكمال الذي خص به من بين سائر الأجسام وتباينت أنواعه وأفراده يجزم بأن له صانعًا حكيمًا مختارًا يخص من شاء بما شاء، وليس من جنس الحوادث.

كذلك إذا نظرت إلى أنواع ذلك الحيوان تراه قد تنوع إلى أنواع مختلفة فمن حيث ضخامة جسمه، وعدم ضخامته، ترى نوعًا منه قد بلغ غاية عظيمة في الضخامة كالفيل، ونوعًا قد بلغ من الصغر حدًّا حتى صار لا يرى إلا بالآلات المعظمة مثل الميكروسكوبات، ومع كون هذا النوع قد وصل في الصغر إلى هذا الحد فله أعضاء مختلفة، كباقي الحيوانات، وله معرفة بطرق المعاش، وميل إلى ما يلائم، ونفور عما يضر، وذكاء يتقي به الأخطار.

ومن حيث التعمير في الدنيا يتنوع أيضًا، فمنه ما يعيش كثيرًا مثل السلحفاة، فقد قال عنها الأخصائيون إنها تعيش مائتين وعشرين سنة، والنسر الذهبي يعيش مائتي سنة، والفيل أكثر من مائة سنة، والفرس يعيش غالبًا ثلاثين سنة، وهكذا لكل حيوان عمر محدود خاص به، لا يمكن للعقل أن يقطع بعلة ذلك التخصيص، ولم يكن ذلك منوطًا بمسكن أو معيشة أو كبر جسم أو صغره.

ومن حيث تناوله الغذاء ترى أن نوعًا منه يتناوله بيديه كالإنسان، ونوعًا يتناوله بفمه كالبقر والغنم والخيل، ونوعًا يتناوله بمنقاره كالطيور، ونوعًا

يتناوله بأنفه كالفيل، ونوعًا يتناوله بلسانه كالحرباء، فإنها تمد لسانها الطويل بمادة لزجة تخطف به الذباب وأمثاله من الهواء.

كذلك إذا نظرت إليه من جهة ظاهر جسمه وجدت منه ما يكسي جسده بالريش، الذي يحفظه من الحر والبرد، ويعينه على الطيران، ومنه ما هو مكسو بالصوف، أو الشعر، أو الوبر، أو العظم، كالسلحفاة، ومنه ما ليس عليه إلا الجلد والبشرة.

كذلك تراه قد اختلفت أنواعه من حيث اختلاف هيئاته وأشكاله وكيفية تحصيل رزقه، وكيفية تناول الطعام، ومن حيث اختلاف ألوانه، ومن حيث تفاوت أصواته، فمنها المطرب ومنها المنكر.

فإذا أضفت إلى هذا الذي علمته من وجوه الاختلاف في الحيوان ما فيه من التركيب العجيب، وتكون الأعضاء، أو الحواس الظاهرة والباطنة، ووظيفة كل عضو منها، ودقائق صنعها، وانطوائها على الفوائد الجمة، والمصالح التي بنيت على الحكمة أدركت أن ذلك التخصص لا يتأتى أن يكون اتفاقيًّا، بل لابد أن يكون بصنع فاعل حكيم مختار، ليس من جنس الحوادث.

* * *

النحل

إن القرآن الكريم نصَّ صراحة على ظاهرة الهداية في مملكة النحل بقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

هذه النحلة: منذ أن تخرج من يرقتها ويقوى جناحيها علىٰ الطيران فإنها تُبادر إلىٰ العمل مع جماعات النحل بجد وهمةٍ ومُثابرة ونشاط لتبني أولًا قرص الشمع في أشكال سُداسية هندسية دقيقة الصنع والمقاييس غاية في الدقة.. ثم تبدأ في الطيران جماعات مئات الأميال كل يوم تجمع الرحيق من آلاف الزهور.. وفي طريق العودة إلىٰ قرص الشمع يبدأ المعمل الكيميائي في داخل بطنها لتحويل رحيق الزهور إلىٰ عسل مصفىٰ مُختلف ألوانه.. فما أن تصل النحلة إلىٰ قرص الشمع حتىٰ يكون الإنتاج قد بلغ ذروته من العسل المصفىٰ الذي تقوم بإفراغه داخل الفجوات السداسية الشكل.. وما أن تنتهي من إفراغ حمولتها حتىٰ تعود أدراجها إلىٰ مشوار آخر لإحضار المزيد.. وهي تفعل كل ذلك تسخيرًا من المولىٰ العليم الحكيم لأنها بالطبع غير مستفيدة من هذا العسل الذي تفني عمرها كله في إنتاجه.. وإنما هي خرجت من يرقتها وهي تحس أنها خُلقت مُسخّرةً من

(١) النحل: ٦٨-٦٩.

خالقها العظيم الذي فطرها لهذا العمل لكي يستمتع الإنسان الجاحد بنعمة ربه، يستمتع بهذا الطعام الشهي اللذيذ الذي فيه شفاء له.. ومصداقَ قولـه تعـالىٰ... ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

كيف تعلمت النحلة بناء قرص الشمع في هذه الأشكال الهندسية الدقيقة الصنع؟

من ذا الذي دل النحلة إلىٰ أنها بعد جمع الرحيـق مـن الزهـور تعـود وتُفرغـه عسلا شهيًّا في داخل فجوات الشمع السُداسية الشكل؟

إنما هي عظمة الخالق الذي أوحىٰ إليها والذي أبدع كل شيء خلقـه وفطرتـه التي فطر الخلق عليها.

* * *

النمل

والنمل... تلك الحشرة الاجتماعية التي يضرب المثل بتعاونها وتضامنها، إنهـا لتدخر رزقها في الصيف وتحفظه في مخـازن التمـوين في مـستعمراتها إلى الـشتاء؛ حيث يتعذر عليها الكسب والسعي، وإذا رأت فيها خزنته ما ينبت عمـدت إليـه ففلقته فلقتين- كالكزبرة مثلًا- لئلا ينبت، فإن كان ينبت مع فلقه فلقتـين فلقتـه

أربعًا، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت يومًا ذا شمس، فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ثم أعادته، فمن علمها هذا وهداها إليه؟

ومن عجيب أمرها حاسة شمِّها القوية التي تدرك بها من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو السمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع بقي فيه فتات من خبز وغيره من الطعام فتحمله وإن كان أكبر منها وزنًا فإن عجزت عن حمله رجعت إلى مسكنها، واستنجدت بطائفة من أصحابها، فيأتون كخيط أسود؛ ليحملوا ما عجزت صاحبتهم عن حمله.

وليس للنمل ملك كما للنحل، لكن لها رائد لا يكذبها، يطلب الرزق في مظانِّه، فإذا أوقف عليه أخبر جماعته، وكما يرسل طلاب الكلأ رائدًا يرود لهم المكان يرسل النمل رائدًا لا يكذبهم يطلب الرزق في مظانِّه، فإذا وقف عليه أخبر جماعته.

* * *

ثعبان البحر

ثم من أوحى إلى ثعبان البحر ألا يضع بيضه إلَّا في بقعة من قاع البحر تقرب نسبة ملوحتها من ٣٥٪ وتبعد عن سطح البحر بما لا يقل عن (١٢٠٠) قدمًا، ففي مثل هذه البقعة يحرص الثعبان على رمي بيضه التي لا تنضج إلا بهذين الشرطين: ضغط معين يتأتى من كمية مياه معينة، ونسبة ملوحة معينه.

* * *

الثعلب

ومن علَّم الثعلب كيف يتماوت؟ فإذا اعتصره جوع استلقى على ظهره ويختلس نفسه إلى داخل بدنه حتى ينتفخ فيظنه الظان ميتًا حتى إذا ما اقتربت منه فريسة وهي تمشي واثقة الخطى وثب عليها وفي لحظاتٍ تستقر في جوفه!. ومن علَّمه إذا مسَّه قرح أو أوجعه جرح أن يعمد إلى صبغٍ معروفٍ فيأخذ منه ويضعه عليه بلسمًا شافيًا ومرهمًا!

* * *

أنثى الفيل

ومن علم أنثى الفيل إذا حان وقت وضعها أن تأتي إلى ماءٍ قليل الغور فتلد فيه؛ لأنها دون سائر الحيوان لا تلد إلا قائمة بسبب الوضع الخاص لتركيب جسمها، وهي عالية فتخاف أن يسقط وليدها على الأرض من علٍ فيصيبه مكروه فتضعه على ذلك المهاد الحاني!.

* * *

العنكبوت

ومن علَّم أنثى العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة وتجعل في أعلاها خيطًا ثم تتعلق به فإذا تعرقلت بعوضة مثلًا في الشبكة تدلت إليها فاصطادتها!

* * *

البومة والصقور والحشرات

والبومة تستطيع أن تبصر الفأر في ثنايا الأعشاب مهما اشتدت ظلمة الليل، وَوُهِبَتْ الصقور بصرًا مكبرًا مقربًا (تلسكوبيًّا) حتى إن أحدها ينقض من عنان السماء على فريسته في الأرض التي تبعد عنه ثلاثة أميال.

حتى الحشرات هي الأخرى منحت عيونًا مكبرة (ميكروسكوبية) بلغت الغاية في الإحكام.

* * *

الدجاج

قام أحد العلماء بصنع جهاز خاص مزود بالحرارة وبخار الماء وسائر الشروط التي تحتاجها عملية توليد فراريج من البيض، ثم وضع فيها بيضًا لكنه لم يحصل على النتيجة المطلوبة، فاستنتج أن دراسته لشرائط التوليد الطبيعي غير كاملة، فأجرى تجارب جديدة على الدجاجة حال احتضانها للبيض، وبعد دقة فائقة في الملاحظة اكتشف أن الدجاجة تقوم في ساعات معينة بتبديل وضع البيضة وتقليبها، فأجرى التجربة في جهازه الخاص بإضافة الدرس الجديد الذي تلقنه من الدجاجة فنجحت نجاحًا باهرًا، فمن ألهم الدجاجة وهداها إلى تلك الطريقة التي عجز عنها عقل عالم... إن ذلك لمن أكبر الأدلة على وجود الله صانع هذا الكون ومدبر شئونه...

ولنأخذ مثلًا أخر ومظهرًا من مظاهر دلالة الحيوان على وجود الله سبحانه.

إن الطيور لها غريزة العودة إلى الموطن الذي بها عشها.

* * *

عصفور الهزاز

فعصفور الهزاز الذي عشش ببابك يهاجر جنوبًا في الخريف ويعـود إلى عـشه في الربيع التالي، وتطير أسراب من معظم طيور أمريكا إلى الجنوب وقد تقطـع في الغالب نحو ألف ميل فوق أرض البحار ولكنها لا تضل طريقها!..

* * *

الحمام الزاجل

وحمام الزاجل إذا تحير من جراء أصوات جديدة عليه في رحلة طويلـة داخـل قفص، يحوم برهة ثم يقصد قدمًا إلى موطنه دون أن يضل.

إن هذا وغيره لمـن أكـبر الأدلـة عـلى وجـود الله، ومـن الأمثلـة عـلى هدايـة الحيوانات إلى خالقها سبحانه:

* * *

سمك السلمون

إن سمك السلمون الصغير يمضي في البحر، ثم يعـود إلى نهـره الخـاص بـه، والأكثر من ذلك أنه يصعد إلى جانب النهر الذي يصب عنده النهير الـذي ولـد فيه، فما الذي يجعل السمك يرجع إلى مكان مولده بهذا التحديد؟!

إن سمكة السلمون التي تسبح في النهر إذا انتقلت إلى نهير آخـر أدركـت تـوًّا أنه ليس جدولها، فتراها تشق طريقها خلال النهر ثـم تحيـد ضـد التيـار قاصـدة موطنها الأصلي، وهناك ثعابين الماء التي تسلك عكس هذا المسلك، فهـي متـى اكتمل نموها هاجرت من مختلف البرك والأنهار، وربما قطعت آلاف الأميـال في المحيط قاصدة الأعماق السحيقة جنوبي برمـودا، وهنـاك تبـيض وتمـوت، وأمـا صغارها التي لا تملك وسيلة لتعرف بها أي شيء سوى أنها في ميـاه قفـرة، فإنهـا تعود أدراجها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها، ومـن هنـاك إلى كـل نهـر أو بحيرة أو بركة صغيرة، لقد قاومت التيارات القوية، وغالبت الأمواج المتلاطمـة لترجع إلى الأمكنة التي عاشت فيها أصولها...

ألا يدل ذلك على بديع صنع الله، فهداية الحيوان واهتدائه إلى مكان عاش فيه وولد فيه من قبل لابد لذلك من هادٍ، وهذا الخلق وما فيه مـن مبهـرات وأسرار لابد له من مدبر وصانع ألا وهو الله تعالى.

* * *

الأسد

ومن علَّم الأسد إذا مشى وخشي أن يُقتفى أثره طمس أثر مشيته بذنبه! ومن علَّمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه فينفخ في منخريه ليبدأ في الحركة ويدب فيه النشاط؟!

* * *

الدب

ومن علَّم الدب إذا أصابه مرض أن يعمد إلى نباتٍ بعينه يتداوى به فيبرأ؟!

* * *

الذئب

ومن علَّم الذئب إذا نام أن يجعل النوم مناوبةً بين عينيه فينام بإحداهما حتى إذا نعست أنامها وفتح الأخرى! فسبحان من اختصه بذلك، وقد قالت العرب في ذلك.

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا فهو يقظان نائمٌ

* * *

الظبي

ومن علَّم الظبي أنه لا يدخل بيته إلا مستدبرًا ليستقبل بعينه ما يخافه على نفسه وصغاره؟!

* * *

الأيل

ومن علَّم الأيل إذا سقط قرنه أن يتوارى لأن سلاحه قد جُرِّد منه، فإذا كمل نبات القرن أكثر من الحركة لتعود له لياقته البدنية؟!

* * *

الفهد

ومن علَّم الفهد إذا سمن أن يتوارى كذلك لثقل حركته فيقلل من وجباته ويستمر في حميته حتى تعود له رشاقته فيخرج إلى حركة الحياة من جديد؟!

* * *

أنثى الحوت

ومن علَّم أنثى الحوت أنه إذا جاءها المخاض أن تزعق زعقاتٍ خاصة تسمعها أقرب «حوتة» لها فتهب لمساعدتها وتهرع لنجدتها وعندما تصلها تقوم بوظائف ثلاث: الأولى تحوم حولها لتحميها من خطر أسماك القرش حتى لا تهجم عليها مستغلةً لحظة ضعفها، والثانية تفتح فمها برفق لتجرَّ به الوليد- الذي يبلغ طوله في الحوت الأزرق ثمانية أمتار ووزنه ثلاثة أطنان- لتخرجه من رحم أمه. وأما الثالثة فتضربه بذيلها ضربة رفيقة ليعلو فوق سطح الماء في دهشة حتى تنفتح رئتاه ليأخذ أول نسمة من أكسجين الهواء الجوي... لا نملك هنا إلا أن نقول سبحان الله!

* * *

الكلب

ومن علَّم الكلب إذا عاين الظباء أن يعرف الذكر من الأنثى، فيقصد الذكر لأنه يعلم أن الذكر إذا عدا شوطًا أو شوطين حقنه بوله وإذا حُقن لا يستطيع أن يبول مع شدة العرق، فيقل عدوه فيدركه الكلب!. وأما الأنثى فينساح منها بولها لسعة قبلها وسهولة مخرجه فيدوم عدوها؟!

ومن علَّمه إذا كسا الثلج أرضًا أن يتحسس الموضع الرقيق الذي قد انخسف فيعلم أن تحته جحر الأرانب فينبشه ويصطادها علمًا منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق موضعًا؟!

* * *

الحمامة

ومن علَّم الحمامة إذا حملت أن تأخذ هي والأب في بناء العش وأن يقيما حروفًا تشبه الحائط لئلا يتدحرج عنها البيض! ثم يسخناه ويحدثا فيه طبيعة أخرى ثم يقلبان البيض فيه في أيام معدودات! ومن قسَّم بينهما الحضانة والكدح، فأكثر ساعات الرعاية على الأم وأكثر ساعات السعي على الأب! وإذا خرج الفرخ عَلِمَا ضيق حويصلته عن الطعام فينفخان فيه نفخًا متداركًا حتى تتسع حويصلته، ثم يزقانه اللعاب أو شيئًا قبل الطعام هو له كالحليب للطفل! ثم يعلمان احتياج الحويصلة إلى دباغ فيزقان الفرخ شيئًا من الملح والتراب فإذا

اندبغت زقّاه الحب، فإذا علما أنه أطاق اللقط منعاه الزّق، فإذا تكاملت قوته وسألهما الكفالة لطماه!

ومن علّم الحمام إن أراد سفادًا أن يبتدئ الذكر بالنداء فتتطارد له الأنثى قليلًا لتذيقه حلاوة الوصال ثم تطيعه في نفسها ثم تتمنع بعض التمنع لتذيقه بعض نار الحرمان فيشتد لها طلبًا، ثم تتهادى وتتكسل وتريه معاطفها وتعرض له محاسنها، ثم يحدث بينهما من التغزل والعشق والرشف والتقبيل والتلامس (ملامسة الكير للكير وهما غدتان على منقار الذكر والأنثى بواقع واحدة لكل منهما) ما هو مشاهدٌ بالعيان؟!

ومن علّم المرسلة من الحمام إذا سافرت ليلًا أن تستدل ببطون الأودية ومجاري المياه والجبال ومهاب الريح ومطلع الشمس ومغربها فتهتدي بذلك وبغيره (مثل حاستها المغناطيسية) إذا ضلت فإذا عرفت الطريق انطلقت كالريح أو هي أشبه!. ورحم الله الإمام الشافعي إذ يقول: أعقل الطير الحمام.

* * *

الديك الشاب

ومن علّم الديك الشاب إذا لقي حَبًّا لم يأكله حتى يفرقه لتجتمع الدجاجات حوله فتصيب منه! وأما الديك الهرم فقد ذهبت عنه رغبته ومن ثم راح ينقر الحب- وحيدًا- بغير أن يفرِّقه؟!

* * *

البطة البرية

ومن علَّم البطة البرية أنها إذا ما أحسَّت بعدوٍّ يقصد عشها الذي بنته بالقرب من الماء والذي يحضن صغارها، كقطٍّ أو كلبٍ أو ثعلبٍ أو آدمي، خرجت منه على الفور وأظهرت نفسها للعدو ومشت متثاقلة بجوار الماء فيتبعها بعيدًا عن العش، وفي اللحظة المناسبة تنزل إلى الماء فجأة وتعوم مبتعدةً عن الشاطئ؟!

وإذا كان عدوها قادرًا على السباحة تبعها في الماء وسار وراءها شوطًا، وعندما تشعر بأنه منها دنا حلَّقت في الجو لتوها تاركةً هذا المعتدي تعتصره خيبة الأمل بعد أن نجحت في إبعاده عن صغارها!.

* * *

صقر البحر

ومن علَّم صقر البحر أن يظهر أمام عدوه بجناح يبدو وكأنه مكسور ويتعثَّر في مشيته ويسقط ثم يقوم وكأنه فقد توازنه. وهذا التمثيل المتقن لا يدع مجالًا للشك عند عدوه في أنه سيتمكن منه. ولكن سرعان ما تظهر استحالة ذلك عندما يكون- بعد أن ابتعد عن العش وما به من صغار مسافة كافية- على أهبة الفرار!.

* * *

ومن علَّم العقارب إذا تقابل ذكران منها في فترة الزواج أن يتشاجرا ويتعاركا ولا يحسم الأمر بينهما إلا بإفساح أحدهما الطريق للآخر، لكي يفوز هذا المنتصر بالزواج من عقربة بالغة تقبله في هذه الفترة زوجًا لها؟!

وعلَّمه بأن يقوم بالتجول باحثًا عن تلك العقربات الراغبات في الزواج مثله، فإن صادف واحدة منهن تقدَّم إليها واقترب منها وحاول- على استحياء- أن يلمسها، فإذا رضيته تبدأ على الفور طقوس الزواج، وإن رفضته فعليه الفرار وإلا فلا.

و«رقصة الغزل» أو «رقصة الزفاف» هي أول طقوس الزواج، وهي تستمر عدة ساعات وقد تطول إلى يومين كاملين في بعض الأنواع، وتتخللها فترات قصار للراحة تتراوح بين ٥ ثواني و٤ دقائق. وقبل أن يبدأ (العروسان) في أداء هذه الرقصة التي لابد منها، يقوم العقربان بتسوية الساحة تحتهما بفرشها بالتراب الناعم أو الرمل!. وتبدأ مراسم الرقصة بأن يتواجه الراقصان معًا كما يفعل بعض بني البشر في الأفلام القديمة، ويضع كلٌّ منهما فمه على فم الآخر، ويمسك العقرب جسم محبوبته بأقدامه (كلاليبه)، ثم يبدأأن الرقص!..ولكن ما طبيعة هذا الرقص؟

الجواب رقصة الزفاف بمثابة نوباتٍ من هزاتٍ خفاف يختلف عددها في كل نوبة حسب نوع العقرب، قد تصل في بعض الأنواع من ٥-٨ هزات في النوبة

الواحدة ويؤدي العروسان رقصتهما بأرجلٍ ثابتاتٍ بينما الأجسام هي التي تهتز فقط إلى الخلف وإلى الأمام.

وأثناء الرقص تبدأ الفتحة التناسلية للعقربة في الاتساع تدريجيًّا وكذلك لدى العقرب حتى يبرز منها حامل المني- وهو عبارة عن حافظة أو كيس به المني- شيئًا فشيئًا حتى يسقط على الأرض. وهنا يقوم العقرب بإرشاد عقربته- التي لا تزال حتى هذه اللحظة متشابكة معه بأطرافها- للعثور على حامل مني تلتقطه في فتحتها التناسلية، وعندئذ تتحرك الحيوانات المنوية منه لتخصِّب بيضها! وبعد هذا الإنجاز تنتهي رقصة الزفاف.

وماذا يحدث بعد ذلك؟.على العقرب مغادرة المكان فورًا لينجو بنفسه! إذ تتولَّد لدى العقربة بعد إخصابها ميولًا عدوانية عنيفة.

وإن لم ينجح الذكر في الهرب بسرعة تهجم عليه عقربته بوحشية فتقتله ثم تأكله، وتظل حالة الهياج هذه تتملك العقربة لفترة بعد أن هرب منها عقربها ليكتب له عمرٌ جديد؛ إذ تظل تبحث عنه في أرجاء ساحة الرقص، مقلبةً في حوافظ المني الفارغة الملقاة فيها، لعل وعسى!.

من الذي علَّم العقرب والعقربة كل دقائق تلك الطقوس ينجزاها بنجاح يحفظ للنوع بقاءه؟! علمًا بأن جميع أنواع العقارب تفعل هذا عند الزواج مع قليل اختلاف!. سبحان الله! إنها الذات الهادية.

مخلوق صغير يدل على وجود الله

لعلنا حين نتعرف إلى قصة الحياة في أبسط مخلوق وهو «الأميبا» ندرك أن وراء سر الحياة قدرة وعلمًا وإرادة، لو فحصنا قطرة من ماء المستنقع تحت المجهر ابتغاء التعرف إلى سكانه لرأينا إحدى عجائب الكون «الأميبا»، وهو كائن حي يتحرك ببطء وربما يتجه نحو كائن صغير ليحوطه ثم يهضمه ويتمثله، ويمكننا أن نرى الفضلات الخارجة من جسم هذا الكائن الحي الرقيق المفترس ولو أطلنا النظر إليه لأمكننا أن نرى كيف ينشطر جسم «الأميبا» إلى شطرين، ثم ينمو كل شطر ليكون حيوانًا جديدًا كاملًا يعيش في المستنقعات وبرك المياه ويتحرك بواسطة زوائد تسمى الأقدام الكاذبة، هذا الحيوان مكوَّن من خلية واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التي تحتاج الكائنات الكبيرة الأخرى في أدائها إلى آلاف الخلايا بل الملايين وهذا الحيوان لا يزال على ما كان عليه مذ وجد، ويمثل عظمة الحياة وروعتها على بساطته لقيامه بالتغذية والتنفس والطرح والنمو والتكاثر والحركة والتأثر والإفراز والتلائم مع البيئة، علمًا بأن في الأرض بلايين البلايين من الأحياء وفي كل واحد منها من العجب ما ينقضي الزمان ولا ينقضي...

إن ذلك لمن الأدلة المحسوسة على وجود الله والتي يوجد كثير مثلها في هذا الكون الفسيح.

إن الله ظهر باسمه الهادي في كل شيء كما بطُن وخفي، ظهر كثيرًا وبَطُن كثيرًا، ظهوره الكثير جعل المؤمنين به كأنهم يعاينونه ولسان حالهم يقول: لو كُشف الحجاب ما ازددنا يقينًا. وخفاؤه الكثير جعل الكافرين يوقنون بأن

الأوَّلين واهمون. ولا يمكن- في حكم العقل- إلا أن يكون الله ظاهرًا وباطنًا في آن. ظاهرًا للجَنَان وخفيًّا عن العيان. لقد أخفى الله علينا ذاته وظهر علينا بصفاته. وكما في هداية المهتدين على الهداية دليل، ففي هداية الضالين عليها كذلك دليل، فالذات الهادية موجودة في الحالين!.

تلكم كانت أمثلة قصدنا بها لفت النظر إلى ظاهرة الهداية، فإذا ما تنبَّه العقل وتأمَّل ذلك الوجود كله بعمق رآى هداية الله سبحانه وتعالى في كل شيء: في دوران الإلكترونات حول نوى ذراتها، ودوران الكواكب حول شموسها، ودوران الشموس حول نفسها ومجراتها، إنها في خلية كل نبات وجهاز كل حيوان وكيان كل إنسان. والهداية بلا هادٍ غير مقبولة عقلًا وقلبًا.

* * *

الفصل الرابع: النبات

النبات يتكون بسبب وضع الحبة أو النواة في الأرض الرطبة، وذلك أن الحبة أو النواة إذا وضعت في الأرض الرطبة، ومضت عليها مدة ظهر في الحبة أو النواة من أعلاها شق، ومن أسفلها شق، فالشق الأعلى يخرج منه جزء هو الشجرة الصاعدة إلى الهواء، والشق الأسفل يخرج منه جزء آخر هو الشجرة الهابطة في الأرض، وهي المسماة بعروق الشجرة.

إذا أمعنت النظر قليلًا في ذلك التكون الذي حصل، لظهرت لك عجائب يحار في إدراكها العقول:

أولًا: أن الحب إذا وقع في الأرض الرطبة واستولى عليه الماء والتراب فالنظر العقلي يقتضي أنه يتعفن ويفسد.

ثانيًا: أن الحبة إذا وقعت في الأرض الرطبة انتفخت، وترتب على ذلك الانتفاخ عادة التفتح والانحلال من كل الجوانب ومع ذلك تراها لا تنشق إلا من الأعلى والأسفل.

ثالثًا: أن النوى مع ما فيه من الصلابة العظيمة التي بسببها يعجز عن فلقه أكثر الناس ينفلق إذا وقع في الأرض الرطبة، وانفلاقه يكون من نقرة صغيرة على ظهر النواة، فتصير النواة نصفين، يخرج من أحدهما الجزء الصاعد، ومن الآخر الجزء الهابط.

رابعًا: طبيعة تلك الحبة أو النواة التي تولدت منها الشجرة واحدة، وتأثير الطبائع والأخلاط والكواكب فيها واحد، ومع هذا تخرج شجرتان إحداهما خفيف صاعد، والأخرى ثقيل هابط، مع اتحاد الطبيعة والماء والهواء والتربة.

خامسًا: أن باطن الأرض جرم كثيف صلب، لا تنفذ المسلة القوية فيه، ومع هذا فإنا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة، كأنها مياه منعقدة، بحيث لو دعكها الإنسان بأصبعه بأدنى قوة لصارت كالماء، ثم إنها مع غاية لطافتها تقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة.

سادسًا: أنه يتكون من تلك النواة أو الحبة شجرة، فيها طبائع مختلفة، فقشرها له طبيعة خاصة، وجرمها المستور بذلك القشر له طبيعة خاصة، ويصلح لما لا يصلح له القشر، كذلك يقال في الأوراق والأزهار والثمار.

سابعًا: أنك تجد أحوال الفواكه مختلفة، فبعضها يكون اللب في الداخل، والقشرة في الخارج مثل اللوز، وبعضها يكون بالعكس مثل المشمش والخوخ. كذلك تتباين أنواع النباتات مع اتحاد التربة وجميع لوازم النمو، فمنها أنواع كثيرة لا تحس بشيء فالتحقت بالجماد، ومنها ما يحس فالتحق بالحيوان كالنوع المسمى بالسنط الحساس، الذي إذا لمس وحرك أحس وانضمت وريقاته على عصار يغري الذباب فيسقط عليها، فإذا أحست به انطبقت عليه ولا تتركه حتى تمتص رطوبته، ثم تتركه ميتًا لم يبق منه سوى القشر، ويسمى هذا النبات آكل الحشرات.

هذه التباينات في الأنواع والخواص والإثمار وعدمه، والطبائع مع اتحاد التربة والماء والهواء والتكوين على خلاف ما تقتضيه الطبيعة ويقضي به العقل في بادئ النظر دليلٌ على أن ذلك الحاصل ليس حصوله اتفاقيًا ولا اقتضته طبيعة بل هو بفعل فاعل حكيم مختار قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

ظاهرة الحياة النباتية وأدلتها على وجود الله

يتساءل أحد علماء النبات في أمريكا عن كيفية نمو النبات فيقول: لا يكفي أن يكون هناك ضوء ومواد كيماوية وماء وهواء لكي ينمو النبات، إن هناك قوة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة فتؤدي إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابهة المعقدة والتي تعمل معًا في توافق عجيب.

إن البذرة التي بدأت من اتحاد خليتين مجهريتين تتألف كل منهما من عدد كبير من العناصر والعمليات تُكَوِّن فردًا جديدًا يشق طريقه في الحياة ويكون مشابهًا للنبات الذي أنتجه بحيث لا تنتج حبة القمح إلا قمحًا ورغم ما بين أنواع النبات من تشابه تجد لكلٍّ صفاته وخواصه المميزة.

---

(١) الرعد: ٤.

ويقول: كل النباتات الراقية تقوم بعملية التمثيل الضوئي الذي ينتج فيه النبات المواد الغذائية من ثاني أكسيد الكربون والماء في وجود الضوء وهناك التشابه في تركيب البذور والسيقان والأوراق والأزهار وما يؤديه كل منها من الوظائف المتماثلة في النباتات المختلفة.

وهناك الاستجابة الموحدة للمؤثرات الخارجية فكلها تنتحي نحو الضوء، وتموت عندما تحرم من الضوء أو الأكسجين.

فمن الذي قدر وأوجد تلك القوانين العديدة التي تتحكم في وراثة الصفات وفي نمو النبات؟

وسوف يقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر أشد تعقيدًا وأكبر عمقًا وهو: من أين جاءت النباتات الأولى؟ أو بعبارة أخرى: كيف خلق النبات الأول؟

ونحن لا نستطيع أن نصل بعقلنا الطبيعي ومنطقنا السليم إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها، أو نشأت هكذا بمحض المصادفة ولابد لنا من البحث عن خالق مبدع، ويعتبر التسليم بوجود الخالق أمرًا بديهيًّا تفرضه عقولنا علينا.

إلى هنا ينتهي كلام عالم النبات الأمريكي، ونحن نقول له:

نعم لا يستطيع النبات خلق نفسه، ولا نشأ بمحض الصدفة... صدقت في هذا، ولم يبق إلا أن تعترف وتقر وتذعن بأن الله تعالى هو خالق كل شيء، ولا يتم شيء في الكون إلا بعلمه.

ومن الآيات التي تدل على وجود الله في النبات أيضًا:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[1].

قصة شجرة النارجيل:

من أروع ما كتب في وصف هذه الشجرة أن مسافرًا كان يجوب أرضًا شديدة الحرارة، وتحت شمس محرقة الأشعة، فرأى شجرة معتدلة الأجذاع ذات أوراق حسنة المنظر وقد وفرت في المكان ظلًّا رطبًا يعتبر منتهى أمل المسافر في مثل هذه المناطق في النهار، فلما آوى المسافر إلى الظلِّ حامدًا الله شاكرًا له أن هيأ له هذا الظل تحت هذه الشجرة الطيبة خرج إليه صاحب كوخ قريب ودعاه إلى بعض الراحة في كوخه وآتاه بشراب شهي فيه طعم حموضة أروى ظمأه وأنعشه، وبعد أن استراح دعاه إلى الطعام في صحون مختلفة من جفنة سوداء مصقولة لامعة، وسقاه خمرًا لذيذة لم يشرب مثلها قط، ثم آتاه بحلاوة فاخرة، ثم بغيرها... فقال المسافر وقد دهش:

من أين لك بهذا كله في هذا القفر؟ فقال: من شجرة النارجيل، فالشراب الذي سقيتك إياه من جوزها قبل نضجه، واللبن الذي استطبته من ذلك الجوز

---

(١) إبراهيم: ٢٤-٢٥.

بعد النضج، والغذاء الذي لذَّ لك من أوراق تلك الشجرة، وتلك الخمرة من عصارة زهرها، ومن هذه العصارة كل ما عندي من

السكر، وكل هذه الصحون والجفان والآنية التي رأيتها على المائدة من قشر جوزها، وهذا البيت الذي أسكنه منها فجدرانه من خشبها وسقفه من نسيج أوراقها ومظلتي من نسيج هذه الأوراق، والثياب التي ارتديها من خيوط أليافها ومن هذه الألياف نصنع مناخلنا وحصرنا وقلوعنا وحبالنا والزيت الذي نوقده في مصابيحنا عصير لب جوزها ولنا فيها مآرب أخرى...

فدهش المسافر، ولما هم بالانصراف سأله صاحب الكوخ أن يبلغ كتابًا كتبه له لصاحب له في مدينة مجاورة فقال ومن أين لك بالحبر والقرطاس؟ قال: من تلك الشجرة فالحبر من نشارة أغصانها والقرطاس من أوراقها فأخذ المسافر الكتاب وهو في حيرة وعجب......

هذه شجرة طيبة قد وفرت للإنسان كل حاجاته وحققت له كافة رغباته- تعطيه كل ما يريد وتجعله في غنى عن طلب أي شيء فليس لما تمنحه من مزيد!

هذه الشجرة الطيبة وغيرها من النباتات لمن أكبر الأدلة على وجود الخالق العظيم والصانع المبهر فسبحان من خلق ذلك بقدرته، وأودع كل ذلك فيها بحكمته، ولو أراد أكثر من ذلك الإبهار فيها أو في غيرها لكان بإرادته!.. ﴿إِنَّمَآ

أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].



(١) سورة يس -آية: ٨٢.

ضوابط وموازين في الكون
تدل على وجود الله

لم يخلق الحق جل وعلا أي شيء إلا لحكمة.

وكذلك البوم خلقه الله ليكون أداة من أدوات التوازن البيولوجي في بيئته الطبيعية بتغذِّيه على الفئران مثلًا، وفي غياب البوم تتكاثر الفئران وتخرق حاجز التوازن البيولوجي وتتحول إلى ما يُعرف في عُرف علماء البيئة «آفة طارئة».

فالثعابين مثلًا خلقها الله كي تكون أداة من أدوات التوازن في بيئتها فهي تقتات بفرائس كان يمكن لها في غياب كفتها الأخرى وهي الثعابين أن تخرق الميزان البيولوجي في بيئتها الطبيعية.

الحكمة المبثوثة في كل شيء في الكون

إن كل ما في كتاب الله المنظور- الكون- ينطق بما بُثَّ فيه من حكمة، من ذراته إلى مجراته، ومن خلاياه إلى كائناته، وفي اجتماع الذرات والمجرات والخلايا والكائنات. وكل شاهدٍ من هذه الشواهد التي تقدر بمليارات المليارات لو نسبه- إنسانٌ- إلى العدم أي إلى لا شيء لكان- حقًّا- مجنونًا، فكم هم غافلون أولئك الذين لا يؤمنون بالله الحكيم، وكم هم سفهاء إذ يتهمون المؤمنين بخالق الحكمة أنهم مجانين، وصدق الله إذ يقول في كتابه الكريم: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[1].

ودعونا نضرب الأمثال من عالم الأحياء:

أ- **الجمال:** انظر إلى الجمال وتبين كيف خُلقت تجد الحكمة في ذلك واضحةً جليَّة.

فشفة الجمل العليا مشقوقة كي تعينه على أكل حسك الصحراء وما فيه أشواك، وخفافه تناسب الرمل فتمكنه من السير فوقه بغير غوصٍ بخلاف ما لو كانت له حوافر مدببة وأظلاف، وأهدابه الطوال كالشبكة تحمي عينيه من هبوب الصحراء وذرو الرمال، وللجمل كبير قدرة على أن يغلق فتحتي أنفه فلا يدخل فيهما ما يمسه بأذى. وانظر إلى ركبه تجدها مدعمة بوسائد قرنية صلبة تحميها إذا برك ويتشحم سنامه مما يجعل جلده يرق فتقرب أوعيته الدموية من السطح مما يسمح بإشعاع حرارة الدم خارج الجسم عندما تعلو حرارته على حرارة الجو من حوله وبغير حاجة لأن يعرق، وانظر إلى سطح جسمه مقارنًا بحجمه تجد النسبة منخفضة مما يعني أن ما يمتصه الجسم من حرارة الجو قليل جدًّا، وانظر إلى الوبر الكثيف الذي يكسو جسمه تجد قد سقط معظمه إذا ما ولَّى الشتاء، وما يتبقى منه يعزله جيدًا عن الجو الحار من حوله فيقلل من الحرارة التي يمتصها. وانظر إلى حرارة الجسم تجدها مرنة. فهي تهبط ليلًا إلى نحو ٣٤°م

---

(١) القلم: ١-٨.

بينما تعلو بعد الظهيرة إلى ٤٠.٧°م وعند الدرجة الأخيرة فقط يبدأ الجسم في إخراج العرق، وانظر إلى الجمل كيف يختزن الماء، وكيف يحافظ عليه، ففي الليل يفقد حرارته المخزونة بغير تفريطٍ في قطرةٍ منه، وانظر إلى صبره على العطش واحتماله له احتمالًا قد يُناهز أسبوعًا، وكلها بعض المعاني لقوله جل وعلا: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾(١).

ب- **الطيور**: أخف المخلوقات في مثل أحجامها، وعظام الطير رقَّت وتجوفت، وبداخله أكياس هوائية، وبعض أعضائه ضحَّت بنفسها فاختزلت في داخله، وله زورق، وجناحان، وريش، وكل هذا ليتمكن من التحليق فيما خلق الله من سماء.

جـ- **الأسماك**: تأمل في سمكة تجد لها خطًّا طوليًّا على جانبيها، وما فائدة هذان الخطان؟ إنهما همزة الوصل بين السمكة وما حولها فبهما تحس وبهما تقرأ ما يحدث في محيطها من تقلباتٍ في الضغط والحرارة فتسلك السلوك الذي يُجنبها السخونة والاصطدام، وانظر إلى جسمها الانسيابي ليساعدها على التقدم للأمام، وانظر إلى رشاقة زعانفها والتي هي لها محركات الدفع والتوجيه. وانظر إلى خياشيمها وقد توردت بالدم فهي لها كما الرِّئات للثدييات، وانظر إلى ما يكسو جسمها من قشور هي لها درع يحمي ويصون.

---

(١) الغاشية: ١٧.

وإن نظرت إلى ما في بطنها ميَّزت كيس العوم الذي يمَكِّنها من العلو في الماء ومن الهبوط. وإذا رأيت ثَمَّ رأيت إعجازًا وحِكَمًا كثيرة.

د- **الخفافيش**: وانظر إلى الخفافيش تطير ليلًا وقد شحَّ الضوء وكلَّ البصر، وهي تتلمس طريقها وسط الحواجز والمعيقات مهما كثرت أو استدقت بخفة هائلة وسرعةٍ فائقة، والرؤية عندها بأذنيها لا بعينيها فهي كالرادار أو هو لها أشبه.

هـ- **النبات**: وانظر إلى النبات تجده يقوم بعملية «سحرية» يُركب فيها البسيط بما لا يستطيع إنسانٌ أن يفعل مهما أوتي من علمٍ وقدرة، فيجهز الغذاء لأفواهٍ تنتظر من عاشباتٍ ولاحمات وما علا من مستهلكات، كما تجده ينتج مما يساعد على صعود العصارات، وانظر إلى الثغور التي بالأوراق تراها تختلف باختلاف البيئات فهي تقل في نباتات الصحراء بينما تكثر في نباتات الماء، مما يُقلل النتح في الأولى ويزيده في الثانية.

هذه أمثلة- مجرد أمثلة- تعطينا صورة مبسطة عن الحكمة المبثوثة في كل الأشياء، والإنسان كلما زاد علمًا كلما زاد إدراكًا لتلك الحكمة، بيد أن القلوب العمي والآذان الصم والعقول المعطلة تبقى عاجزة فلا ترى ولا تسمع ولا تعي.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

---

(١) الملك: ١٠-١١.

تُرى لو نسب إنسانٌ إلى أعمى أصم أبكم ميت صناعةَ جهاز مثل الرادار ألا يشك في عقله بل يُجزم بجنونه؟ أوليس الذي ينسب سلوك الخفافيش في الظلام رغم كلالة أبصارها إلى المادة العمياء الصماء البكماء الميتة أكثر جنونًا؟! ولا تنس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾[1].

بطلان وجود العالم مصادفة

يتساءل عالِمٌ ذو باع طويلة في العلوم الطبيعية عن سر الحياة، وهل يمكن أن تكون من صنع التفاعلات الكيميائية وحدها؟

إن المتفق عليه عمومًا هو أنه لا البيئة وحدها، ولا المادة مهما كانت موائمة للحياة، ولا أي اتفاق في الظروف الكيماوية والطبيعية يمكنها أن تأتي بالحياة إلى الوجود.

حتى الماديون أنفسهم يصرحون باستحالة صدور الحياة عن طريق التفاعلات، فـ(أوبارين) يقول: «إذا كان بعث الحياة عن طريق التفاعل الطويل الأمد لا يزال ممكنًا في كواكب أخرى غير كوكبنا- أي الأرض- ففي هذا الكوكب لم يعد له مكان».

---

(١) فصلت: ٤٠.

ونسأل هذا العالم: من أين عرفت الإمكانية في الكواكب الأخرى؟ وكيف انقلب الممكن- مع أنه لا ينقلب- إلى مستحيل؟

ولنعرض بعض النماذج عن التنوع والتفرد لنرى مبلغ التهافت في نسبة الخلق للطبيعة؛ ولذا فكل ما في الكون ابتداء من بناء الذرة إلى أعقد صور الحياة يدل على التصميم والقصد مع أن التصميم والقصد لا يلتقيان مع المصادفة إن بعض العقول تثير شبهة المصادفة فإن بعض العقول تثير شبهة المصادفة وترجع هذا الوجود إليها، وينبغي أن يعلم ابتداء أن خلق الأشياء أمر وترتيبها على صورة معينة بعد خلقها أمر ثان، أما الخلق فلا دخل للمصادفة فيه بحال من الأحوال؛ إذ العدم لا ينتج شيئًا مهما تطاولت عليه الأزمان، أما الترتيب على نحو من الأنحاء فما مدى إمكانية وقوعه مصادفة؟

إن الحقائق التالية التي تتجلى في التنسيق والتنوع والنظام والاطراد كفيلة بالرد الذي لا ريب فيه.

أولًا: صيدلية الكون والدواء الفريد:

لدينا صيدلية ممتلئة بالمعاجين والأحماض والمراهم والأدوية العديدة، وفجأة حدثت هزة طرحت هذه الأشياء أرضًا، فاختلطت وامتزج بعضها ببعض، فإذا أمامنا خليط غير متجانس من الأدوية، أليس هذا هو المتوقع عقلًا؟

بلى، ولكن إذا رأينا أمامنا دواء جديدًا لم يخطر ببال من جراء هذه الهزة، أليس هذا أدعى إلى الاستغراب؟ إذ الأدوية - كما هو معلوم - تحتاج إلى نسب محددة بدقة، ولو ارتقينا في التصور فإذا نحن أمام دواء فذ يعالج مرضًا مستعصيًا أعجز الأطباءَ دواؤه - كالسرطان مثلًا - الذي يجرب فيه سنويًّا ما يقرب من أربعين ألف دواء كل منها مركب بنسب دقيقة بإشراف عقول متخصصة، ولا ينفع واحد منها إلا في إطار ضئيل.

إن مثل هذا الدواء المقصود يدخل في دائرة المستحيل ولك أن تسأل بعد هذا عن مدى تصديقنا لمن يزعم بأن مزيج الأدوية أدى إلى إيجاد خلية أو كائن حي سواء كان نباتًا أو حيوانًا، علمًا بأن إمكانية المصادفة تقف دون قضية الحياة ولا تتعدى دائرة المادة.

وباحتمالات محددة محسوبة، فإن عالمًا من علماء الرياضيات حسب الاحتمال النظري لحدوث ذرة أحادية واحدة بسيطة بطريقة المصادفة وبعد أن أجرى عليها تبسيطات من حيث المادة وحجمها التي بإمكانها أن تعين رقم الاحتمال البالغ (٢×١٠)٣٢١٠، ومن حيث الزمن الذي تحتاج إليه نظرية الاحتمالات حتى يمكن تشكيل هذه الذرة، وجد أن مثل هذه الذرة المتصورة بطريق المصادفة تحتاج إلى مادة يحتاج الضوء كي يقطع قطرها إلى (١٠)١٦٤ سنة وأما الزمن - بعد الاحتمال والكون المفترض من المادة - فقدر بـ(١٠)٢٤٣ بليون سنة.

فإذا كانت الأرض على تقدير الخبراء لم توجد إلا من بليوني سنة، كما أن الحياة لم تظهر إلا من بليون سنة، فأنّى لهذه الإمكانية الزمانية والمكانية أن تحققا وجود ذرة واحدة مصادفة؟ وكيف إذا كنا في كون تكوين الذرة فيه محير، وتركيب الفلك مدهش، وتركيب الخلية باهر والأنسجة والأعضاء والكائن الحي كلها عوالم باهرة، ودلالاتها على الواحد الخلاق قاهرة، إن الدقة والتعقيد والجمال والروعة في بناء الكائن الإنساني لا يقبل أن يكون نتاج مصادفة عمياء.

يقول أحد العلماء:

«أي قدرة وأي حكمة وأي إبداع أبدعه الله في مصنوعاته سواء في أصغر الأشياء أو أكبرها؟ إن المنافع التي نستمدها من هذه الكائنات تشهد بعظمة رحمة الله الذي سخرها لنا، كما أن كمالها وتناسقها ينبئ بواسع حكمته، وكذلك حفظها عن التلاشي وتجددها يقر بجلاله وعظمته».

ثانيًا: عالِم الطبيعة البيولوجية يطرح الحقائق التالية:

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون والأيدروجين والنيتروجين والأكسجين والكبريت، ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني (٤٠٠٠٠) ذرة، وإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تُكَوِّنَ جزيئًا بروتينيًّا يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطًا مستمرًّا كي تؤلف هذا الجزيء ثم لمعرفة طول الفترة اللازمة كي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد، وبحساب هذه

العوامل جميعًا وجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة- كما يدعي الملحدون- لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة (١) إلى (١٠) مضروبًا في نفسه (١٦٠٠) مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث التفاعل بالمصادفة حيث ينتج الجزيء أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات.

ويتطلب هذا الجزيء على سطح الأرض بطريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرت بـ(١٠) مضروبة في نفسها (٢٤٣) مرة، وحسب العلماء احتمال اجتماع الذرات التي يتكون منها جزيء واحد من الأحماض الأمينية- وهي المادة الأولية التي تدخل في بناء البروتين- فوجدوا أن ذلك يحتاج إلى بلايين من السنين، وإلى مادة لا يتسع لها هذا الكون وهذا في تركيب جزيء واحد على ضآلته فما بالك بأجسام الكائنات الحية من نبات وحيوان وبما لا يحصى من المركبات المعقدة، وما بالك بنشأة الحياة وبها في والأرض...

إنه يستحيل عقلًا أن يكون ذلك قد تم عن طريق المصادفة العمياء، بل لابد لكل ذلك من خالق مبدع عليم خبير، أحاط بكل شيء علمًا.

الإبداع في الكون ملازم لكل شيء

ألم تر يا من تبحث عن حقيقة وجود الله لوحة رسام فُتن الناس بها؟ قل لي: لِـمَ هذا الافتتان الذي قد يستخرج العجب ويأخذ بالألباب؟ هل لإبداع الفنان؟...

تُرى ألم يخطر ببالك وأنت أمام مشهد جميل من مشاهد الكون أن تفكر في المبدع الأعظم الذي أبدعه، أم إلف الجمال صرفك عن التفكير وأبعدك؟!

إن الإبداع في الكون ملازم لكل شيء إنك لو تأملت لوجدت الإبداع ملازمًا لكل شيء، ونضرب لك الأمثال:

١ - **السماء**: في زرقة قبتها، وتلاقي أفقها على مد البصر مع ماء البحر كي يلثمه، وغبشة ليلها، وتلألؤ نجومها، القمر في بزوغه وأفوله، الشمس في مشرقها ومغربها، الفجر وهو يصافح الدنيا معلنًا بدء ميلادٍ جديد، والضحى وهو - على استحياءٍ - يتبعه، والظهر في صراحته وانكشافه، والأصيل في رومانسيته وافتتانه. كل ذلك آثار إبداع عظيم.

٢ - **البحر**: في اتساعه، والموج في غضبته وانكساره، والماء في ليونته وشفافيته، وقد خلعت السماء عليه بردتها فبدا في أعيننا بلونه اللازوردي الجميل، والشطآن الرملية تحرسه وتُحدِّد ملامحه وتُكمل صورته وتجملها لتسر الناظرين، والشمس وهي تسقط فيه عند رحيلها كجمرة نارٍ أرادت أن تدفن في مياهه نفسها لترتاح من عناء يومٍ قائظ.

وانظر إلى فيلمٍ عن «بانوراما» ما تحت الماء، تجد عجبًا: شعابًا تعانقت، ومخلوقاتٍ تباينت في الأشكال والأحجام والطباع تباعدت أو تقاربت، والحياة عن نفسها قد أفصحت كما لم تُفصح على اليابسة عن خصبٍ وتنوعٍ وثراء، حتى لا تكاد تصنع في خيالك شكلًا لمخلوقٍ إلا وتكاد تجده تحت الماء ينبض حركة

ويتألق حُسنًا. وتجد في البانوراما ما يبدو جميلًا وما يبدو دون ذلك، وفي كلٍّ آية وفي كلٍّ جمال.

أرأيت أن عالم الأسماك يضم وحده ما يربو على عشرين ألف نوع، منها الهادئ المستكن القابع في الطين، ومنها النشط على الدوام فلا يهدأ ولا يكاد ينام، ومنها ما يردي خصمه قتيلًا، ومنها ما يقنع بالعيش ذليلًا، ومنها ما يبتغي بين السبيلين سبيلًا.

أمثلة من الحياة تدل على وجود الله

الهادي جل جلاله:

يقول الحق جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[1]، و﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾[2]، و﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[3]، و﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[4]، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾[5]، و﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ

(١) الأعلى: ٣.

(٢) طه: ٥٠.

(٣) السجدة: ١٣.

(٤) المائدة: ١٦.

(٥) سورة البقرة آية: ٢٦.

﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾(1)، و﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾(2)،و﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾(3)،و﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(4)، و﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(5).

إذا ما تلونا آيات ربنا السابقة وتأملنا فيها وتفكرنا ثم قرأنا كتاب ربنا المنظور- الكون- قراءة متأنية متأملة لوجدنا فيه هداية كاملة، من أصغر ذراته إلى أكبر مجراته، ومن أبسط مظاهره إلى أعقد أشكاله، فكيف نُعلل هذه الهداية؟ مَنْ أوجدها؟ وكيف استمرت؟

إن هناك جوابًا واحدًا يقدمه العقل على ذلك، هو وجود ذات هادية هذه الذات هي الله تعالى.

وجاء في كتاب "**للكون إله**" ما يأتي:

١ - **الهجرة العجيبة**: انظر إلى ثعابين الماء وما يحدث لها، إنها إن اكتملت نموًّا هاجرت- ذكورًا وإناثًا- في وقتٍ معلومٍ وطريق مرسومٍ إلى مكانٍ مقسومٍ، إنها

(١) المدثر: ٣١.

(٢) النحل: ٣٦.

(٣) التغابن: ١١.

(٤) البلد: ١٠.

(٥) الإنسان: ٣.

تتوجه جميعًا في آن واحد من كل أماكن تواجدها في أنهار الدنيا وبحيراتها قاطعة آلاف الأميال في المحيط شطر «بقعة الإنسال» في الأعماق السحيقة جنوبي برمودا، فتلك البقعة هي المقصد والملتقى، وهي خير المراد من رب العباد، وهناك تتزاوج وتبيض وتموت ولم ينتهي الأمر بذلك ... بل للرواية بقية، فصغارها التي تخرج من البيض، والتي تيتَّمت بموت الآباء كلهم والأمهات، والتي لا تدري من أمرها شيئًا سوى أنها في أفقر مياه، تعود أدراجها وتجد طريقها إلى مواطن الأجداد والأسلاف! فهي تعرف سبيلها إلى كل نهر أو بحيرة كانت تعيش فيها الآباء والأمهات، وهكذا لا يخلو الماء على سطح الأرض من ثعابينه! ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في مياه أوربية مثلًا أو العكس.

من الذي وَقَّت الميعاد، ورسم الطريق، وحدَّد نقطتي التلاقي والفراق؟.

سبحان الله، إنها الذات الهادية.

٢- **التأمين الغريب**: لننظر ماذا يفعل الزنبور. إنه يصيد الجندب (النطاط) ولكن ليس ليقتله ويأكله وإنما ليبقيه عليه غضًّا طريًّا!.

كيف يفعل ذلك؟ ولماذا؟!

إنه ينخزه بإبرته في مكانٍ معينٍ بحيث يفقده وعيه فقط، فلا يكثر السمَّ فيه بحيث يميته ويُسمم لحم أبنائه إذا أكلوا منه، كما لا يقلله بحيث يظل محتفظًا بوعيه ليفر وينجو. ومن بعد الوخز يأتي الحفر، إنه يحفر له لا ليقبره وإنما لتأتي

أنثاه وتضع بيضها في المكان المناسب تمامًا من الحفرة، ثم تغطي الحفرة وتنطلق فرحة مرحة وقد اطمأنت لآداء واجبها. وتتوالى الأيام فتموت الأمهات كما يموت الذكور ويفقس البيض الذي تم وضعه في الحفرة ويخرج الصغار فيجدون اللحم المحفوظ قوتًا لهم وغذاءً فلم تنس أمهاتهم قبل موتهن أن تؤمِنَّ لأبنائها سبيل الحياة وهم لا زالوا جوعى وعجزى! ولابد أن الزنبور قد فعل ذلك منذ البداية من أول أيام وجوده علي سطح الأرض وكرره دائمًا وإلا ما بقي على هذا السطح زنبور بعد.

من الذي وجَّه الأب ووجَّه الأم؟ من الذي وزَّع الأدوار ووجَّه الأنظار؟

سبحان الله، إنها الذات الهادية.

٣- **التدبير المذهل**: حيوان يعيش وحيدًا فريدًا في فصل الربيع، اسمه الإكسيلوكوب، ومتى باض مات! وهكذا تتيتَّم الصغار فأمها ترحل عنها قبل أن تخرج للحياة- فما العمل إذن والصغار قُصَّر لا تستطيع الحصول على غذائها لمدة سنة كاملة؟ لابد من تدبير؛ لذا تعمد الأم إلى قطعة من الخشب فتحفر فيها سردابًا، ثم تجلب أطلع الزهر وبعض الأوراق حلوة الطعم وتحشو بها السرداب، ثم تبيض بيضة، ثم تأتي بنشارة خشب وتجعلها عجينة لتكون سقفًا لذلك السرداب، وتصنع بعد ذلك سردابًا آخر، فإذا فقست البيضة وخرجت الدودة كفاها الطعام المدخر مؤنتها سنة.

من الذي علم ودبر؟... سبحان الله، إنها الذات الهادية.

٤- **الظهور المدهش**: وهاكم نوع خاص من الجراد قد بلغ من العمر سبعة عشر عامًا قضاها كلها تحت الأرض في شقوقٍ لم تعرف غير الظلام لها محيطًا ولكن في ميقاتٍ معلومٍ، (٢٤) مايو من عامه السابع عشر تمامًا، سرعان ما يظهر على سطح الأرض بالملايين.

من الذي أعلمه أنه قد بلغ السابعة عشرة من عمره؟ بل من أعلمه أننا في شهر مايو وفي الرابع والعشرين منه؟! ومن مكنه من ضبط مواعيده للظهور بدقة، ربما يعجز الإنسان عنها لولا استعانته بـ«التقويم».

سبحان الله، إنها الذات الهادية.

٥- **التقليب المطلوب**: إن الدجاجة تُقلِّب بيضها ليفقس، هذا مشاهد معروف. وهنا خَطَر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض بغير حضانة الدجاج له، بأن يضع البيض في الحرارة نفسها التي توفرها الدجاجة التي تحضنه، وبعدما جمع البيض ووضعه في جهاز التفريخ نصحه فلاح بتقليبه؛ إذ إنه رأى الدجاجات يفعلن ذلك، فَسَخِرَ العالم منه وأفهمه أن الدجاجات إنما يقلبن بيضهن ليعطين الجزء الأسفل منه حرارة أجسامهن والذي حرم منها، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة. واستمر العالم في عمله حتى جاء دور الفقس وفات موعده بيد أن بيضة واحدةً منه لم تفقس

وأعاد العالم التجربة منفذًا نصيحة الفلاح أو بالأحرى مقلـدًا الدجاجـة، فـصار يُقلب البيض حتى إذا أتى موعد الفقس خرجت الفراريج! إذن هناك حكمة من تقليب البيض علَّمها الله للدجاجة وهي أن الفرخ حينما يُخلق في البيضة تترسـب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه إن بقي بلا تحريك، لذا فالدجاجـة لا تقلب بيضها في يومه الأول ويومه الأخير! وبهذا التقليب المطلوب يبقى الدجاج ولا ينقرض؛ لأنه يعلم تمامًا ما عليه أن يفعله! ولابد أن ذلك قد فعلته الدجاجـة الأولى منذ خُلقت.

من الذي أعلم الدجاجة ما ينبغي أن تفعله إبقاءً لنوعها؟

سبحان الله، إنها الذات الهادية.

٦- **المجتمع المترابط**: النحل مجتمعٌ تعاوني، على رأسه ملكة تملك ولا تحكـم، وبه الذكور قلة وهم مساكين أذلة، وفيه الشغالات عاملات.

وإذا ما ألقينا نظرة على أمر هذا المجتمع نجده عجبًا. على رأس الخليـة ملكـة وهي أنثى كاملة الأنوثة، لذا فهي أم النحل جميعه، ولها رائحة مميزة تسمى «مادة الملكة» تحصل عليهـا الـشغالات بملامـستها لهـا وتنـشرها بـين أفـراد الطائفـة لتكـسبهم خـصوصيتها. ولكـل طائفـة ملكـةٌ واحـدة إلا في حـالات اليـتم أو الإحلال أو التطريد. وللملكة وظيفة واحدة هي وضع البيض: بعـضه مخـصب ينتج الملكات والشغالات، وبعضه دون ذلك لإنتاج الذكور.

وللذكور، قلة قليلة منهم، وظيفة واحدة هي إخصاب الملكة.

وأما الشغالات فتقمن بجميع الوظائف الباقية، وهن يقضين أنصاف أعمارهن في داخل الخلية والأنصاف الأخر خارجها، وفي أيامهن في الخلية يتقلبن في العديد من الوظائف: من اليوم الأول وحتى الثالث يعملن منظفات ومكيفات للهواء، ومن اليوم الرابع وحتى السادس يمارسن وظيفتهن في حضانة البيض وتربية الصغار، ومن اليوم السابع وحتى الثالث عشر يقمن بتغذية اليرقات بالغذاء الملكي بحساب، ويرقة الملكة تتمتع به طوال حياتها، وأما يرقات الذكور والشغالات فيفطمن منه بعد ثلاثة أيام ليتغذين بما يسمى «خبز النحل».

ومن اليوم الرابع عشر وحتى اليوم العشرين تتحول الشغالات إلى أعمال البناء فيهندسن عشرات الألوف من العيون السداسية وهن لم يتخرجن في كلية للهندسة ولم يتخصصن في فن المعمار، وأما في اليوم الحادي والعشرين فتتحول الشغالات إلى حارساتٍ مسلحاتٍ يتقدمن من قرب مدخل الخلية لمراقبة الداخلين حيث يطالبونهم بإبراز هوياتهم الشخصية، وإلا يُعلنَّ حالة الاستنفار بين أفراد الطائفة إن اكتشفن بالمدخل غريب أو مُغِير من مثل نحلٍ أجنبي أو فأرٍ أو حتى زنبور، وبعد ذلك وحتى الممات تخرج الشغالات لأول مرة من الخلية ليعملن جامعات للغذاء من حبوب اللقاح ورحيق الأزهار والماء، ومهندساتٍ للصيانة يرتقن شقوق الخلية بما جمعن من صمغٍ وخلطنه بالشمع.

وبعد أن تؤدي الشغالة كل هذه الوظائف وتتم رسالتها على الوجه الأكمل فإنها تسلم الروح لبارئها.

من الذي وزَّع الأدوار؟ ومن الذي أعلم بالأيام؟ ومن الذي ربط الأفراد برباط الوحدة الواحدة والمجتمع المتفاهم المتعاون؟

سبحان الله إنها الذات الإلهية.

نعم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

٧- **الحشرات بانيات القصور**: تعيش حشرات النمل الأبيض في مستعمرات ولكن إذا زاد أفراد المستعمرة على حدٍّ معينٍ بالنسبة لكمية الغذاء المتاحة، ماذا تفعل؟

إنها تتجه فورًا نحو التهام عدد كبير من البيض الذي وضعته، وبذا تحل المشكلة؛ فالتهام البيض يعتبر تغذية من ناحية كما أنه يقلل من عدد الذرية من ناحيةٍ أخرى، إنها تفعل ما يجب عليها أن تفعله حتى لا تتعرض لخطر الفناء.

---

(١) النحل: ٦٨-٦٩.

وتستخدم هذه الحشرات للتخابر عن بعد نوعًا من الشفرة تشبه شفرة التلغراف؛ إذ تدق على جدران النفق برأسها عدة دقات فيفهم باقي النمل ما تريده زميلتهم عن طريق تلك الدقات، وتعيش حشرات النمل الأبيض على الخشب فهي تلتهمه التهامًا؛ إذ في بعض الأماكن الموبوءة بها قد يتناول أفراد الأسرة طعام عشائهم على مائدة خشبية، ثم في الصباح يذهبون لتناول إفطارهم عليها فلا يجدونها فقد سبقهم النمل الأبيض لتناولها، والخشب لا يحتوي على أي مواد عضوية قابلة للهضم، لذا احتار العلماء في تفسير هذه الظاهرة حتى هداهم الله إلى كشف السر فهل تعلم أخي القارئ ما هو هذا السر؟

في داخل الجهاز الهضمي لكل نملة تعيش مجموعة من «الفواعلية» وهي حيوانات أولية دقيقة أحاديات الخلية، لهن وظيفة محددة وهي فرز إفرازات تحول الخشب إلى مواد غذائية قابلة للهضم هي التي يتغذى بها النمل الأبيض.

ومن العجيب أنه لم يحدث إطلاقًا أن اكتشفت نملة بيضاء واحدة تخلو أمعاؤها من هؤلاء الفواعلية، ولو لم توجد هذه الحيوانات داخل أمعاء النمل الأبيض منذ بدء خلقه لما أمكنه الحياة ولانقرض منذ أول أجياله... سبحان الله!

ولا يعيش النمل الأبيض في جحور بل قصور! ففي بعض الجهات الموبوءة بتلك الحشرات المدمرة قد يسأل أحد السائحين وهو ينظر من نافذة القطار عن اسم القرية التي يشاهدها على مدى البصر ظاهرة، فيعتريه الذهول عندما يخبرونه أنها ليست لسكنى البشر بل مأوى النمل الأبيض! وهي أبنية سامقة

تعلو عن سطح الأرض عدة أمتار تصنعها هذه الحشرات مـن مـادة غريبـة هـي خليط من لعابها والمواد الأخرى، ومساكن النمل الأبيض منيعة ومحـصنة، فهـي في متانة الأسمنت المسلح بل وأقوى ولا يمكن للحشرات الأُخر أن تخترقها ولا للماء أن يتسرب من جدرانها، وبداخلها أنفاق وسراديب مخططة بإحكـام ووفقًـا لجغرافية خاصة يتخذها النمل الأبيض مستقرًا له ومستودعًا!.

من الذي علَّم هذه الحشرات كيف تحل مشكلة نقص الغذاء لـديها؟ وكيـف تتخابر عن بُعد؟ وكيف تستعبد الأوليات في داخلها لتجهز لها وجباتهـا الـشهية من مواد خشبية؟ ومن علمها كيف تبني القصور وتخطط بداخلها أنفاقًا وسراديب؟.

سبحان الله، إنها الذات الإلهية.

٨- **التكوين المُعجز**: أرأيتم إلى النخلة كيف تكوِّن ثمرها؟ يقوم جذر النخلة بامتصاص عناصر الغـذاء مـن التربـة بـما عليـه مـن شـعيرات دقـاق، وتـصعد العصارة بالخاصة الشعرية وغيرها من العوامل الأخرى إلى أعلى، ويتغذى جذع النخلة بما غَلُظ من هذه العصارة، أما الخلاصة فتعرف طريقها لتغـذي الأجـزاء العلوية، وأما خلاصة الخلاصة فتسمو لتكون الثمرة، وقمع البلحة هو مصفاتها التي تسمح بمرور الغذاء تمامًا إلى الداخل فقط، ليكون الحلو من البلحـة وغـير الحلو من نواتها، ومنه ينشأ جسم البلحة الطري وهيكـل النـواة الـصلب، وبـين الحلو والمر والطري والصلب غلاف يستخفي لشفافيته. والسؤال: هـل حـدث

إطلاقًا أن أخطأت نخلة فكونت نواة البلحة في الخارج والبلحة ذاتها في الداخل؟ أو كوَّنت البلحة صلبة والنواة طريَّة؟!

من الذي علَّم النخلة هذا التصميم وجعلها تُصمِّم عليه بغير خطأٍ ولا حيود؟!

سبحان الله! إنها الذات الهادية.

٩- **التوجيه المثير**: لينظر المرء منا ماذا كان؟ كان في البدء حيوانًا منويًّا له رأس مفلطح وعنقٌ قصير وذيلٌ طويل. ويستكن هذا الحيوان في مهبل الأم وقد فقد مظاهر نشاطه منتظرًا ما يجود عليه مبيضها ببويضة!. ويطول الانتظار أيامًا وهو يترقب، حتى إذا أحس بالبويضة دبت فيه حيويته وسعى لها سعيها ليخصبها بهدايةٍ منقطعة النظير، فلا دخل لأي قوة فيه- كائنةً ما كانت- كيميائية أو حيوية أو عقلية في توجيهه ليثقب جدار البويضة فيتحد بها ويتفاعل معها كاتبًا بذلك الحرف الأول في شهادة ميلاد إنسانٍ جديد!...

من الذي صممه وألهمه وعلمه وهو لا يدري أنه بسعيه المقصود نحو بويضة الأنثى يضيف إلى ذرية آدم بني آدم جديد.

سبحان الله! إنها الذات الهادية.

١٠- **الرضاع الشاق**: أم ولدت لتوها ولدها، لنتأمل ماذا حدث ويحدث؟.

تنمو الغدد صانعات الحليب مدة الحمل ويدفعها إلى نموها هذا ما يفرزه المبيضان من مواد. وفي نهاية الحمل وبدء الرضاع تتلقى هذه الغدد أمرًا من القائد الأعلى لها، من الغدة النخامية للبدء في صنع الحليب، وما يكاد الطفل يولد حتى يبحث عن ثدي أمه بهدايةٍ لا حد لها!. والرضاع في ذاته عملية شاقة، فهي تقتضي انقباضاتٍ متتالياتٍ في عضلات وجه الرضيع ولسانه وعنقه وحركاتٍ متصلاتٍ في فكه الأسفل وتنفسًا من أنفه. ويقوم الطفل بهذا كله في هدايةٍ تامة من أول رضاعه لحين فطامه! والرجل نفسه ليس بوسعه القيام بعملية الرضاع هذه كما يقوم بها الطفل الذي لم يتجاوز عمره بعدُ ساعات.

من الذي صمَّم وهيَّأ ومكَّن؟

سبحان الله! إنها الذات الهادية.

التأمل في الكون يهدي إلى الإيمان...

تحدث فضيلة الداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله عن ذلك فقال:

«الله سبحانه وتعالى له آيات تملأ الأرض والسماء ولكننا غافلون عنها... فإنك إذا مشيت في الطريق فهناك آيات وإذا صعدت إلى الجبل فهناك آيات وإذا نزلت إلى قاع البحر وجدت آيات وإذا صعدت إلى السماء وجدت هناك آيات، وإذا نزلت إلى باطن الأرض فهناك آيات وآيات.

بل إن هناك آية في تلك الشُجيْرة الصغيرة التي تراها تنبت في سطح الجبل، فساقُها هشَّة لينة ربما لا تحتمل قبضة يدك، ومع هذا فقد فتّتت الصخر ونبتتْ فيه، واستطاعت جذورها الرقيقة الرفيعة أن تمتد وتضرب في باطن الجبل وتحصل على الغذاء.

وتتعجب أنت كيف يمكن أن يحدث ذلك- مع أنك لو أردت أن تصنع ثقبًا في سطح الجبل لاحتجت إلى آلات حادة وقوى كثيرة.

إنك لابد أن تعرف أن الله سبحانه وتعالى- الذي خلقها- قد ألان لها الصخر فنبتت فيه، وألان لجذورها صخور الجبل فامتدت حتى وصلت إلى المصدر الذي يعطيها الغذاء.

هذه الآيات لا تحتاج إلى بحث ولا إلى «ميكروسكوب»، ولكنها تحتاج لمجرد التأمل، وفي الأرض آيات كثيرة لا تحتاج منا أكثر من أن نتأمَّلها لنعرف قدرة الله وعظمته ونؤمن به، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ** ﴾[1].

ولكن لماذا خص الله العلماء بالخشية؟

لأنهم وهم يبحثون في مخلوقات الله في الأرض- يرون أسرارًا ودقة خلق، وإبداعَ تكوينٍ، وكل ذلك يجعلهم أول الساجدين لله، وأول العابدين له سبحانه وتعالى.

---

(١) فاطر: ٢٨.

ولكن هؤلاء العلماء الماديين بدلًا من أن يفعلوا ذلك- أخذوا يحاولون النيْل من الدِّين ومن الإيمان.. أحدهم يعتقد أنه وصل إلى أسرار الكون، ولكنه في الحقيقة لم يصل حتى إلى أسرار نفسه..

قوانين اليقظة والنوم..

الإنسان وهو مستيقظ له قوانين ربما عرفنا بعضها، ولكنه إذا نام انتقل إلى قانون مختلف تمامًا ومجهول له، فالإنسان وهو نائم لا يحسُّ بالزمن، فإذا استيقظ فهو لا يعرف كم ساعة نامها، ولابد أن ينظر إلى ساعته ليعرف كم ساعة قضاها وهو غائب في نومه عن الدنيا.

ومعنى هذا أن قانون الزمن لا يسري على النائم، لأنه لا يحس بالوقت.. لماذا؟

لأن الزمن هو قياس للأحداث، فنحن نقيس الأحداث بالزمن، والنائم هو خارج عن هذه الأحداث.

والإنسان إذا نام رأى وعيناه مغمضتان، ومشى وجرى وقدماه لا تتحركان من فوق السرير، وتحدَّث ولسانه لم يتحرك، ورأى وتكلم مع أناس انتقلوا إلى الآخرة منذ سنوات.. ومع ذلك فهو يحدثهم ويسمعهم، وهم يكلمونه ويفهم ما يقولون، والعلم خارج هذه المنطقة تمامًا، فلا يستطيعُ عالمٌ أن يخبرنا كيف يرى الإنسان أو يتحرك أو يتحدث مع أناس انتقلوا للعالم الآخر.. وهو نائم.

إن كلَّ ما جاء عن هذا في محاولات أُطلِق عليها اسم العلم إنما هـي تخمينـات بلا دليل، ومعظمها من الخيال أكثر من الواقع..

ومع أن كل هذا يحدث لنا كل يوم فإنه يوجد مَن يقول بوقاحـة: لقـد انتهـى عصر الدين وجاء عصر العلم، وهؤلاء إنما يقولـون بهتانًـا، فـالله هـو الكاشـف لعباده عن العلم وهو القائل في كتابه الكريم: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

ولكن بعض الناس لا يؤمنون، رغم أن هناك من الأدلة المادية في الكون ما لا يعدُّ ولا يحصى.. مما يهدي الناس إلى طريق الإيمان وإلى وجود الله..

وهؤلاء الذين لا يؤمنون: قسم منهم مُنْكِرٌ للدِّين، لأنهم يريدون أن يكونـوا هم مصدر التشريع، حيث إن منهج الله سبحانه وتعـالى قـائم عـلى العَـدْل بـين الناس، وقد أعطى كلَّ ذي حق حقـه.. وهـم يرديـون أن يَتميَّـزوا وأن يأخـذوا حقوق غيرهم، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن يضعوا منهجًا من صـنعهم- يعطـيهم كل شيء ويسْلب غيرهم كل شيء، والطريقـة الوحيـدة لـذلك هـي أن ينكـروا منهج السماء.

والقسم الثاني- من الذين لا يؤمنون- فضَّل أن يعيش مع النعْمة بدلًا من أن يعيش مع المنعم، وهؤلاء الناس الذين متعهم الله سبحانه وتعالى بنعمة في الـدنيا

(١) العلق: ٣-٥.

لم يفكروا كيف جاءت هذه النعم، ولكنهم أرادوا أن يأخذوا من الحصول على نعمة المال أو نعمة السلطة أو غيرها من نعم الكَوْن، وهؤلاء شغلوا أنفسهم بالمادة بدلًا من أن يفكِّروا فيمن خلق المادة، وأخذوا النعم على أنها حق لهم دون أن يبحثوا عمَّن أوجدها.

فرغم أن قوانينهم المادية- التي يؤمنون بها- تقول: إنه لا شيء يحدث في الدنيا بدون فاعل، فلم نجد- مثلًا- عمارة نشأت دون أن يكون لها مهندس وعمال وغير ذلك ممن أقاموها.

ومع أن قانون المادة يقول إنه لا يوجد فعل بدون فاعل فإنهم لم يطبقوا هذا القانون على الكوْنِ كله، بل ادَّعوا أن الكوْنَ قد خُلِق بدون فاعل، وبعضهم قال: إن الصدقة حركت المادة فتفاعلت.

ولو أنصفوا لسألوا أنفسهم: من الذي أوجد المادة أولًا؟ ومن الذي حركها ثانيًا؟ ولكنهم تناسوا هذا السؤال.

ولعل هذا واضح في العالم الغربي الذي يحاول الفصل بين العلم والدين فصلًا تامًّا، وربما كان السبب في ذلك هو المعركة الرهيبة التي قامت بين العلم والكنيسة، واستمرت أكثر من قرنين.

فقد كانت الكنيسة تنكر العلم تمامًا استنادًا إلى «التوراة» وهي كتاب اليهود الذي تؤمن به الكنيسة، وقد جاء في التوراة: إن شجرة التفاح التي أكل منها

«آدم» هي شجرة المعرفة، وإنه حينما أكل «آدم» التفاحة- كشفت له علوم كثيرة، فغضب الله عليه وطرده من الجنة، وكانت هذه هي المعصية الأولى التي ما زالت البشرية تُعاني منها حتى الآن، والتي نكفر عنها بحياتنا في الأرض المليئة بالشقاء، ولو لم يأكل آدم تفاحة المعرفة لكنَّا حتى الآن نعيش في الجنة!...

هذه الخرافة هي التي أدت إلى المعركة بين الكنيسة والعلم، ولكن موقف الإسلام مختلف عن ذلك، نرى أن التفاحة التي أكلها آدم هي منهج الشيطان الذي أظهر عوراته وكشفها، كما يظهر تزيين الشيطان للناس في الدنيا عوراتهم، فيكشفها فيصيبهم الخزي والعار.

والإسلام ينظر إلى العلم على أنه من الله أولًا، فالله يكشف بعض آياته في الكون للإنسان، والإنسان يكتشف ولا يخلق أو يضع في الكون قوانين جديدة من صنعه، ولكن الله تعالى يكشف- لمن يشاء- قوانين كونه، ولكل قانون كشف ميلاد، فإذا جاء ميلاد كشف لقانون كوني- كشفه الله لمن يبحث من البشر، فيعرفونه ويستخدمونه.

والله سبحانه وتعالى الذي قال: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾[1].

أرادنا أن نعرف أن كل علم هو من الله، والله سبحانه وتعالى ميز الإنسان على الملائكة بالعلم، فقال جل جلاله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى

(١) العلق: ٥.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ . فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [1].

لكن العلماء الماديين في أبحاثهم يحاولون فصل الدين عن العلم، ويحاولون إنكار دور الدين، إيمانًا بـذاتيَّتهم، فهم يريدون أن يقولوا نحن فعلنا ونحن اكتشفنا.. وليس في بالهم أنهم سيفاجئون بالله سبحانه وتعالى في الآخرة.

ولا يحسب أحدٌ هؤلاء الذين كفروا- إنما فعلوا ذلك لأن آيات الله لم تصل إليهم، بل الآيات أمامهم، ولكنهم هم الذين يتكبرون على الإيمان..

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ ﴾[2].

ولذلك فإن إعراضهم ليس على أن الدليل المادي على وجود الله غائب عنهم، ولكن لأنهم يرفضون الإيمان، إما ليحققوا مصالح ذاتيّة، وإما لأنهم لا يؤمنون بالآخرة.. فيحاولون أن يأخذوا كل ما تعطيهم الدنيا حلالًا أو حرامًا في الوصول إلى أهدافهم، عملًا بمبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة..

---

(١) البقرة: ٣١-٣٣.

(٢) يس: ٤٦.

لوحة فنان ورسام فُتن الناس بها

لقد أبدع الله سبحانه وتعالى في خلقه السموات والأرض وجعل كل ذلك من أجلنا حتى نعرفه بأسمائه ونشكره ونتوجه إليه بقلب ونتوجه إليه بحب ونعبده بعشق، لذا جعل فينا الإحساس بالإبداع والانتشاء بالجمال.

لقد أعطانا ربنا قوة التصور وبداهة الشعور، فصرنا نتذوق الجمال، نقف مشدوهين أمام المرئيات، ونقدر على تذكر آلاف المشاهد واللوحات، ونخترق بمخيلتنا حجب الأرض والسموات، كما منحنا الإدراك الذي به نتفاعل مع الأشياء فنهوى ونحب ونَمَل ونُبْغِض ونَقْبَل ونرفض ونُقْبِل ونُعرض، وتارةً نعمل للبناء وأخرى نسعى للهدم فنجعل الحياة بذلك فنًّا ومعنى ورمزًا وقيمة وفي كلٍّ إبداع. فقد يرسم الرسام صورة الجميل فيبدع وصورة القبيح كذلك، ويبقى الفن في الحالتين فنًّا والإبداع إبداعًا وفي الكون جميلٌ وأجمل وقبيحٌ وأقبح، وفي كلٍّ إبداع.

ولكن خُلِقَ القبيح لِيُعرَفَ الجميل، فالحَسنُ يُظهر حسنَه الضِّدُّ، وتنوع المرائي أدل في القدرة على الإبداع. فلا يفوتنَّك يا من تبحث عن حقيقة وجود الله أن ترى الإبداع ولا تعرف المبدع أو تعشق الجمال وتنسى خالق الجمال، بل ترنَّم دائمًا مع الحادي:

عَذابُـهُ فِيـكَ عَـذْبُ ... وَبُعْـدُهُ فِيـكَ قُـرْبُ
وَأَنْتَ عِنْدِي كَروحِي ... بَـلْ أَنْـتَ مِنهَـا أَحَـبُّ

حَسْبِي مِنَ الحُبِّ أَنِّي   لِمَا تُحِبُّ أُحِبُّ

جل جلال الله وتقدست أسماؤه ولا إله غيره.

لا تصادم بين القرآن والعلم..

إن من يتأمل آيات القرآن ويفهم معناها- يجد فيها أدلة قوية على وجود الله سبحانه وتعالى، تدعو إلى الإيمان به وبرسوله وبقرآنه..

ولو أن الكافرين فكروا قليلًا لوجدوا في آيات القرآن الكريم معجزة، ولو أنهم كانوا علماء وباحثين- فعلًا- لقرأوا القرآن الذي سمعوا عنه، ودرسوا الإسلام دراسة غير مغرضة، ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

إنهم- مثلًا- لو التفتوا إلى الآية الكريمة: ﴿ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[1].

لعرفوا أن الإعجاز في هذه الآية وحدها كافٍ لأن يؤمنوا بالله سبحانه وتعالى.

لقد وصف الله تعالى النهار بأنه هو المبصر، ولكن هل النهار هو الذي يبصر؟ أم العين التي تبصر؟

---

(١) الإسراء: ١٢.

الذي نفهمه من تلقائية الإبصار أن العين هي التي تبصر، ولكن الحقيقة العلمية تختلف، فلقد ثبت علميًّا أن ضوء الشمس ينعكس على الأشياء ثم تدخل أشعة النور إلى العين فتبصر.

إذن فالعين لا تبصر بذاتها ولا بذاتيتها، ولكن تبصر بالضوء الذي ينعكس على الأشياء الموجودة أمامها فيدخل إلى العين، فإذا ذهب هذا الضوء وجاء الظلام فإن العين لا تبصر ولا ترى شيئًا في الظلام الدامس.

وهكذا نرى دقة تعبير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾.

حيث نسب الله سبحانه وتعالى الإبصار لضوء النهار ولم ينسبه إلى العين.

ولقد نزلت هذه الآية والبشر كلهم لا يعلمون كيف يتم الإبصار؟.. فماذا كان يحدث لو تقدم العلم وكشف أن العين تبصر بذاتها وليس بانعكاس الضوء على الأشياء؟ وهل كنا في هذه الحالة نستطيع أن نقرأ في الصلاة: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ألم يكن هذا كافيًا لهدم قضية الدين من أساسها؟!

ولو أن هذا القرآن ليس من عند الله، ولكنه من عند محمد عليه الصلاة والسلام، فما الذي كان يجعله يغامر بذكر قضيةٍ علميةٍ كهذه القضية التي قد تثبت عدم صحته فيضيع الدين كله؟ ومن أين له هذه المعلومات حتى يعرف أن الإبصار يحدث بضوء النهار؟

أليس هذا دليلًا ماديًا كافيًا للإيمان بالله، وللإيمان بأن القرآن منزل من عند الله الخالق لهذا الكون والعالم بأسراره؟!

نحن نعلم أن القرآن كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة، ومعنى ذلك أنه لا يجب أن يحدث تصادم بينه وبين الحقائق العلمية في الكون؛ لأن القرآن الكريم لا يتغير ولا يتبدل، ولو حدث مثل هذا التصادم لضاعت قضية الدين كله، ولكن التصادم يحدث من شيئين: إما عدم فهم حقيقة قرآنية، وإما عدم صحة حقيقة علمية.. فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾[1].

ولو فهمنا الآية على معنى أن الأرض مبسوطة، لاتهمنا كل من تحدث عن كروية الأرض بالكفر، خصوصًا وأننا الآن- بواسطة سفن الفضاء والأقمار الصناعية- قد استطعنا أن نرى الأرض على هيئة كرة تدور حول نفسها.

نقول إن كل من فهم الآية الكريمة بمعنى أن الأرض مبسوطة لم يفهم الحقيقة القرآنية التي ذكرتها هذه الآية الكريمة، ولكن المعنى يجمع الإعجاز اللغوي والإعجاز العلمي معًا، ويعطي الحقيقة الظاهرة للعين، كما يعطي الحقيقة العلمية المختفية عن العقول في وقت نزول القرآن.

فالله تعالى عندما قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾. لم يحدد أرضًا بعينها، بل قال الأرض على إطلاقها، ومعنى ذلك أنك إذا وصلت إلى أي مكان يسمى أرضًا

(١) ق: ٧.

فإنك تراها أمامك ممدودة أي منبسطة، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية، فلو كانت الأرض مربعة أو مثلثة أو مسدسة أو على أي شكل هندسي آخر- فإنك تصل فيها إلى حافة لا ترى أمامك الأرض منبسطة، ولكنك ترى حافة الأرض ثم الفضاء، ولكن الشكل الهندسي الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه الأرض ممدودة في كل بقعة تصل إليها هي أن تكون الأرض كروية- وهكذا تكون الآية الكريمة: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾. دليل على كروية الأرض، وهذا هو الإعجاز في القرآن الكريم، حيث يأتي باللفظ الواحد ليناسب ظاهر الأشياء ويدل على حقيقتها الكونية.

ولذلك فإن الذين أساءوا فهم هذه الآية الكريمة- وأخذوها على أن معناها أن الأرض منبسطة- قالوا: إن هناك تصادمًا بين الدين والعلم، والذين فهموا معنى الآية الكريمة فهمًا صحيحًا قالوا: إن القرآن الكريم هو أول كتاب في العالم ذكر أن الأرض كروية. وكانت هذه الحقيقة وحدها كافية بأن يؤمن كل الكافرين، ولكنهم لا يؤمنون.

والقرآن الكريم لم يأت بالدلائل التي تؤكد لنا أن الأرض كروية في آية واحدة، بل جاء بها في آيات متعددة... لماذا؟.

لأن هذه قضية كونية كبرى، ولأن الكتب القديمة التي أنزلها الله قبل القرآن الكريم قد حرفت بشريًّا، فأوجدت تصادمًا بين الدين والعلم، ولذلك يأتي القرآن الكريم ليعطينا الدليل تلو الدليل على كروية الأرض ودورانها حول نفسها.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1].

الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يرد على اعتقاد غير صحيح كان موجودًا عند العرب وقت نزول القرآن، وهو أن الليل يأتي أولًا ثم بعد ذلك يأتي النهار، لكن الله تعالى يصحح هذا الاعتقاد الخاطئ، فيقول: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾.

أي أنكم تعتقدون أن النهار لا يسبق الليل، ولكن الله يقول لكم إن الليل أيضًا لا يسبق النهار، ومعنى أن النهار لا يسبق الليل وأن الليل لا يسبق النهار- أنهما موجودان معًا على سطح الكرة الأرضية.. ولكن لا يمكن أن يوجد الليل والنهار معًا في وقت واحد على سطح الكرة الأرضية- إلا إذا كانت الأرض كروية، فيكون نصف الكرة مضيئًا والنصف الآخر مظلمًا.

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يؤكد هذا المعنى، فذكر آية أخرى تحدد معنى كروية الأرض ودورانها، فقال جل جلاله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[2].

ومعنى الآية أن الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر، كما يحدث في النوبة الثالثة لتخلف الثانية، وهكذا.

---

(١) يس: ٤٠.

(٢) الفرقان: ٦٢.

ونحن نعلم أن الليل والنهار يتعاقبان علينا في أي بقعة من بقاع الأرض، فلا توجد بقعة هي نهار دائم بلا ليل، ولا توجد بقعة هي ليل دائم بلا نهار، بل كل بقاع الأرض فيها ليل وفيها نهار.

ولو أن الأرض ثابتة لا تدور حول نفسها، ووجد الليل والنهار معًا ساعة الخلق- فلن يخلف أحدهما الآخر، بل يظل الوضع ثابتًا كما حدث ساعة الخلق، وبذلك لا يكون النهار خلفة لليل ولا الليل خلفة للنهار.

ولكن لكي يأتي الليل والنهار بحيث يخلف كل منهما الآخر- فلابد أن يكون هناك دوران للأرض لتحدث حركة تعاقب الليل والنهار..

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ يحمل معنيين: المعنى الأول أنهما خُلقا معًا، فلم يسبق أحدهما الآخر، وهذا إخبار لنا من الله سبحانه وتعالى بأن الأرض كروية.

والمعنى الثاني أن الأرض تدور حول نفسها، وبذلك يتعاقب الليل والنهار..

وإذا أردنا دليلًا آخر على دوران الأرض حول نفسها: لابد أن نلتفت إلى الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[1].

---

(١) النمل: ٨٨.

فعندما نقرأ هذه الآية ونحن نرى أمامنا الجبال ثابتة جامدة لا تتحرك- نتعجب؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾.

ومعنى ذلك أن رؤيتنا للجبال ليست رؤية يقينية، ولكن هناك شيئًا خفي عن أبصارنا، فهادمنا «نحسب» فليست هذه هي الحقيقة، أي أن ما نراه من ثبات الجبال وعدم حركتها ليس حقيقة كونية، وإنما إتقان من الله سبحانه وتعالى وطلاقة قدرة منه بأنه خلق شيئًا جعلنا نراه على غير حقيقته، وتلك طلاقة قدرة الخالق؛ لأن الجبل ضخم كبير بحيث لا يخفى عن أي عين، فلو أن حجم الجبل كان دقيقًا لقلنا لم تدركه أبصارنا كما يجب، أو أننا لدقة حجمه لم نلتفت إليه هل هو متحرك أم ثابت؟

ولكن الله خلق الجبل ضخمًا يراه أقل الناس إبصارًا، حتى لا يحتج أحد بأن بصره ضعيف لا يدرك الأشياء الدقيقة، وفي نفس الوقت قال لنا: إن هذه الجبال الثابتة تمر أمامكم مرَّ السحاب. ونتساءل الآن: لماذا استخدم الحقُّ سبحانه وتعالى حركة السحب وهو يصف لنا تحرك الجبال؟ نقول: لأن السحب ليست لها ذاتية الحركة، فهي لا تتحرك من مكان إلى آخر بقدرتها الذاتية، بل هي تتحرك بقوة تحرك الرياح، ولو سكنت الريح لبقيت السحب في مكانها بلا حركة، وكذلك الجبال ليست لها حركة ذاتية، أي أنها لا تنتقل بذاتيتها من مكان إلى آخر فلا يكون هناك جبل في أوربا ثم نجده بعد ذلك في أمريكا أو آسيا، ولكن تحركها يتم بقوة خارجة عنها هي التي تحركها، وبما أن الجبال موجودة فوق

الأرض فلا توجد قوة تحرك الجبال إلا إذا كانت الأرض نفسها تتحـرك ومعهـا الجبال التي فوق سطحها.

وهكذا تبدو الجبال أمامنا ثابتة، لأنها لا تغير مكانها، ولكنها في نفس الوقـت تتحرك؛ لأن الأرض تدور حول نفسها والجبال جزء مـن الأرض، فهـي تـدور معها تمامًا كما تحرك الريح الـسحاب، ونحـن لا نحـس بـدوران الأرض حـول نفسها، ولذلك لا نحس أيضًا بحركة الجبال.

وإذا أردنا أن نمضي في هذا المجال فالأرض مليئةٌ بالآيات، ولكننا نحن الذين لا نتنبه، وإذا نبهنا أحد فإن الكفار يعرضون عن آيات الله معانـدة مـنهم؛ لأن الآيـات التي نزلت في القرآن الكريم فيها من المعجزات الكثير الذي يجعلهم يؤمنون.

والحقائق الكونية في القرآن الكريم تتوالى، والآيات تلو الآيات وكلهـا ترينـا إعجاز الخلق، ودقة إخبـار الخـالق لنـا عـن أسرار الـسموات والأرض... فـلا تصادم بين القرآن والعلم الصحيح ولا بين الدين والعلـم، وإن أي تـصادم بـين القرآن والعلم لا يمكن ألا أن تكون النظرية العلمية خاطئة أو أن يكـون فهمنـا للقرآن غير سليم.

صفات المخلوقات العامة ودلالتها على وجود الله

للمخلوقات على الرغم من تنوعها وتباينها صفات عامة وخصائص مشتركة تدل على وجود الله تعالى ووحدانيته فمن تلك الصفات والخصائص:

أ- القدرة على الانتفاع بالمادة والطاقة:

فالمخلوقات في جميع صورها قادرة على الانتفاع بالمادة والطاقة وتتوقف عليهما حياتها، وهي وحدة تجمع الحياة والمادة والطاقة في منظومة متكاملة.

ومثال على ذلك:

تعتمد حياة النبات مثلًا في مادته وطاقته على عملية تغير كيميائي حيوي في غاية الأهمية هي عملية البناء الضوئي حيث يمتص النبات فيها الطاقة الشمسية ويقوم بتخزينها ليستفيد منها الإنسان بعد ذلك على هيئة نار من الخشب أو الفحم أو البترول ومشتقاته، كما أن حياة كل من الحيوان والإنسان تتوقف من حيث المادة والطاقة على حياة النبات...

وهناك دورات مذهلة تدل على عجيب صنع الله وأنه موجود.. انظروا كيف جعل الله الموت ضروريًا للحياة؟ وكيف يخلق الله تعالى الحياة من نواتج التعفن بعد الموت؟ فالله سبحانه وتعالى يخلق الأحياء من عناصر مادية محدودة المقدار في الأرض، ويكفي أن يستنفد عنصر واحد منها في جيل أو أجيال لتقف الحياة ولكن الإرادة الإلهية شاءت تعاقب الموت والحياة لتتجدد بموت جيل المادة التي يخلق الله منها الجيل الذي يليه!!

فمثلًا: تستمد الأحياء الأكسجين من الهواء فإذا ماتت وتحولت بالتعفن إلى ثاني أكسيد الكربون رده الله إلى الهواء ثانية وعن طريق عملية البناء الضوئي يأخذ النبات

هذا الغاز ليعطي بدلًا منه الأكسجين الذي تحيا به وعليه أحياء جديدة، هذه هي أول خصيصة وأول صفة للكائنات والمخلوقات تدل على وجود الله ووحدانيته.

ب- القدرة على مقاومة عوامل الفناء:

جميع المخلوقات تحافظ على نوعها من الانقراض حتى الفيروسات؛ ففيروس الأنفلونزا مثلًا دائم التشكل فهو بذلك يصعب مقاومته، فهناك أنفلونزا بشرية وأنفلونزا الطيور- والتي انتشرت في الآونة الأخيرة بشكل ملحوظ يهدد الطيور، بل ويهدد من يتعامل معهم- فانتشار هذا المرض بهذه الصورة- وإن كان مخيفًا- هو شكل من أشكال المحافظة على بقائه ومقاومة عوامل الفناء.

ج- القدرة على التكاثر:

جميع المخلوقات- راقية وحقيرة- قادرة على التكاثر وذلك بغريزة أودعها موجد الوجود ومبدعه فيها؛ لتكوِّن ذرية تعمل على بقاء النوع وتضمن عدم انقراضه سواء كان هذا التكاثر جنسيًّا أو لا جنسيًّا.

د- القدرة على التنفس:

فكل مخلوق يستطيع أن يتنفس وإن اختلفت الوسائل في ذلك وتباينت الأساليب «فالأميبا» تتنفس وهي أدنى المخلوقات والإنسان يتنفس وهو أرقى المخلوقات والنتيجة في الحالين واحدة: انطلاق الطاقة اللازمة لاستمرار حياة الكائن الحي.

هـ- القدرة على التغذية:

فكل مخلوق يتغذى وإن اختلفت وسائل وأساليب هذا الغذاء، لكن جوهر الاغتذاء في كل المخلوقات واحد وهو: تحويل المعقد إلى بسيط يستطيع جسم الكائن الحي امتصاصه وتمثيله.

و- القدرة على التفاهم:

حيث إن كل المخلوقات تتفاهم فيما بينها وإن لم نفهم نحن هذه اللغة التي هي لغة الحوار فيما بينها، فوسائل التفاهم عند المخلوقات كثيرة: فالحركة لغة والصوت لغة والضوء لغة والرائحة لغة، فمثلًا النحل لغته الرقص، وبعض الأسماك لغتها الوميض، والنملة لغتها الفرمونات.. فسبحان من خلق اللغات لجميع الكائنات فهو القائل: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[1]، وقال سبحانه ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[2] وقال ﷻ: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾[3].

---

(١) الإسراء: ٤٤.

(٢) سورة الأنعام آية: ٣٨.

(٣) الأنبياء: ٧٩.

ز- أيضًا.. القدرة على تعويض المفقود:

وهي صفة تجمع المخلوقات جميعها وبدرجات، فحيوان «الهيدرا» مثلًا ينمو أي جزء مقطوع منه ليُكَوِّن كائنًا جديدًا متكاملًا!..

وهناك كذلك الجمبري (الروبيان) يعوض ساقة إذا فقدها والسحالي والأبراص إن أمسكها أحد من أذيالها أعطتها لمن أمسكها لتنجو بنفسها وسرعان ما تنمو لها أذيال أخر من جديد!..

ولا ننسى في ذلك الإنسان نفسه فإنه إذا أصابه جرح تكونت له خلايا جديدة لتحل محل ما قد تلف.. ولو لم يحدث ذلك لما كان بالإمكان أن تجري له جراحة، وإذا كسرت إحدى عظامه سرعان ما تتكون خلايا جديدة تجبر له ذلك الكسر!..

فهذه الخصائص والصفات المشتركة بين جميع المخلوقات تشهد لموجدها بالوجود والوحدانية.



شهادات العلماء

على وجود الله

الفصل الأول: وجود الله عند علماء الأحياء

رسل شارلز ارنست:

يقول: إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقيد درجة يصعب علينا فهمها، وإن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق ولذلك فإنني أؤمن بوجود الله إيمانًا راسخًا.

كريسي موريسون

يقول: إن استعراض عجائب الطبيعة ليدل دلالة قاطعة على أن هناك تصميمًا وقصدًا في كل شيء، وثمة برنامجًا ينفذ بحذافيره طبقًا لمشيئة الخالق جل وعز.

ويقول: إن حجم الكرة الأرضية، وبعدها عن الأرض، وبعدها عن الشمس، ودرجة حرارة الشمس وأشعتها الباعثة للحياة، وسمك قشرة الأرض وكمية الماء، ومقدار ثاني أكسيد الكربون، وحجم النتروجين، وظهور الإنسان وبقاء الحياة كل أولئك يدل على خروج النظام من الفوضى وعلى التصميم والقصد.

مونيه:

كتب الأستاذ «مونيه» بحثًا في مجلة الوسموس الفرنسية أثبت فيه وجود الخالق فقال إذا افترضنا بطريقة تعلوا عن متناول العقل أن الكون خلق اتفاقًا بلا

فاعل مريد مختار، وأن الاتفاقات المتكررة توصلت إلى تكوين رجل، فهل يعقل أن الاتفاقات والمصادفات تكوّن كائنًا آخر مماثلًا له تمامًا في الشكل الظاهري ومباينًا له في التركيب الداخلي وهو المرأة بقصد عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيها؟ ألا يدل هذا على أن في الوجود خالقًا مريدًا مختارًا أبدع الكائنات، وغرز في كل نوع غرائز، وزوده بمواهب يقوم بها أمره ويرقى عليها نوعه؟.

* * *

الفصل الثاني: وجود الله عند علماء الفلك

ما أكثر العلماء الذين أفنوا عمرهم كله أو جله في دراسته الكون، يرقبون السماء من مراقبهم، ويستقبلون ما ترسل لهم من رسائل راديوية وغير راديوية.

هارلو شبيلي:

العلامة هارلو شبيلي هو أستاذ الفلك بجامعة هارفارد ومن أعظم فلكي القرن العشرين، ومن جملة أعماله المأثورة أنه حدد موقع منظومتنا الشمسية في مجرتنا درب التبانة.

يقول عن الجوهر الأسمى:

تنحصر جواهر الكون في أربعة جواهر أساسية: الزمان والمكان والمادة والطاقة، والحقيقة أن كل علم تجريبي لا يمكن بحثه إلا من خلال هذه الجواهر الأربعة أو من تداخل بعضها في بعض؛ فالحركة والسرعة والدورات الحيوية كلها لا يمكن بحثها إلا من خلال هذه الجواهر.

لكن قد تكون هناك جواهر أخر لم نعرفها بعد، وقد تكون لها أهمية أكثر من هذه التي نعرفها، وقد تكون أسمى منها، ونحدد السؤال فنقول:

أليس هناك جوهر أساسي لتسيير هذا الكون؟ ولأضع السؤال في قالب آخر: إذا كانت لديك القوة الكاملة والفرصة المناسبة والرغبة الواضحة في العمل،

وأعطيت هذه الجواهر الأربعة الأساسية المتقدم ذكرها، فهل بإمكانك أن تُرَكِّب منها كونًا. مثل كوننا؟ أم تشعر بأنك عاجز عن ذلك، وأنك بحاجة إلى جوهر خامس؟

والجواب عن ذلك:

أما أن يكون هـذا الجـوهر الخـامس موجـودًا فهـذا لـيس فيـه أدنـى شـك، ولكن... هل هو الجوهر السيد؟ ربما كانت ضرورته أكبر مـن جـوهري الزمـان والمكان، ومن المحتمل أنه يشملهما، فهو جوهر مختلف عـن كـل الجـواهر أو إن شئت فهو جوهر الجواهر. وهل هو الصمد الذي لا غنى عنه لأحد، ذلك الذي يبعث الوميض في عالم النجوم التي لولاها هي لما كان هناك كون؟

قد يفكر البعض أنني أعني بهذا الله، لكننا يجب ألا نستعجل في هذه القـضية العميقة بعيدة الغور، يجب ألا نستعمل هذه الكلمة المهمة الـشاملة لجـزءٍ واحـد من العالم فقط أو لمفهومٍ ندركه إدراكًا بدائيًّا بسيطًا.

إن من يبحث في مجال علم الكون، سيدهشه أن يجد مميـزات خبيئـة في العـالم تسيِّر ديناميكيته سيرًا مستقلًّا وتشكله وتدفعه ولها القدرة على كل شيء؛ أي إنهـا قوة واعية؛ ولكنها بهذه الصفات لا يقتصر مداها على ما هو موجـود في الأرض فحسب، بل تشمل الكون كله.

إن شبيلي بقوله هذا يصل إلى نتيجة بدهية، هي وجود قوة عاقلة مسيطرة على كل الجواهر الأخر التي يعرفها العلماء.

السير جميس جينز:

السير جميس جينز يعد واحدًا من علماء الفلك الكبار، وهو يقول:

«إن القوانين والمعادلات الرياضية التي يتحرك الكون على أساسها وتنتظم المادة وتعمل، استخرجناها من عقولنا بالفكر والتأمل ثم الحساب. فلما مددنا النظر من خلال مراقبنا وجدنا أن أبعد الأجرام السماوية- مما لم نكن نرى أو نعلم- سائر وفق هذه القوانين. وإنه لأمر بدهي أن نتصور أن هذه القوانين في عقلٍ كُلِّيٍّ شاملٍ مهيمن، وأن هذا العقل أودعها عقولنا كما أودعها الكون ليسير على أساسها، وأن الكون كله مشروع متقن من تصميم مهندس مبدع عظيم هو الذي وضع له الفكرة ووضع القوانين».

* * *

الفصل الثالث: الله في عيون علماء الفيزياء

أينشتاين:

لنستمع إلى قول شيخهم ألبرت أينشتاين، عندما ذهبت إليه جماعة من اللاهوتيين والأخلاقيين والعقليين والماديين إلى مكتبه في معهد الدراسات العليا في جامعة برنستون ليحكم بينهم في موضوع الله بعد أن اختلفوا حوله، وسألوه: ما رأيك في الله؟

فأجاب: «لو وفقت أن أخترع آلة تمكنني من مخاطبة الميكروبات، فتحدثت مع ميكروب صغير واقف على رأس شعرة من شعرات رأس إنسان، وسألته: أين تجد نفسك؟ لقال لي: إني أرى نفسي على رأس شجرة شاهقة أصلها ثابت وفرعها في السماء. عندئذٍ أقول له: إن هذه الشعرة التي أنت على رأسها إنما هي شعرة من شعرات رأس الإنسان، وإن الرأس عضو من أعضائه.

ماذا تنظرون؟ هل لهذا الميكروب البكتيري أو الفيروسي المتناهي في الصغر- حجمه جزء واحد من مليار جزء من السنتيمتر المكعب ووزنه جزء واحد من تريليون جزء من الجرام- أن يتصور جسامة حجم الإنسان ووزنه؟ كلا، إني بالنسبة إلى الله لأقل من ذلك الميكروب وأحط بمقدار لا يتناهى فَأَنَّى لي أن أحيط بالله الذي أحاط بكل شيء!».

ويواصل أينشتاين كلامه قائلًا: «إن أعظم وأجمل شعور يصدر عن النفس البشرية، هو ما كان نتيجة التطلع والتفكر والتأمل في الكون ومكنوناته. إن الذي لا يتحرك شعوره وتموج عاطفته نتيجة هذا التأمل لهو حي كميت.

إن خفاء الكون وبعد أغواره وحالك ظلامه إنما يخفي وراءه أشياء كثيرة منها الحكمة وفيها الجمال، ولا تستطيع عقولنا القاصرة إدراكها إلا في صور بدائيةٍ بسيطة. وهذا الإدراك للحكمة والإحساس بالجمال ما هو إلا جوهر العبادة عند بني البشر، إن ديني هو إعجابي بتلك الروح السامية التي لا حد لها، تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة، وهو إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للأفهام». إلى هنا انتهى كلام أينشتاين...

ولعلك تتساءل معي أخي القارئ هل معنى هذا أن أينشتاين كان مؤمنًا بالله؟! والجواب عن ذلك:

لم يكن مؤمنًا فحسب، بل كان يرى أنه ما من عالمٍ عبقري ينفذ إلى بعض أسرار الحكمة والنظام في الخلق إلا ويكون إيمانه بالله عظيمًا، بل إنه ليرى أن العلم لا يستقيم في مسيرته بلا إيمان، وأن الإيمان لا يستنير بغير العلم، وفي هذا كله يقول وما أروع ما يقول: «إن أجمل هزة نفسية نشعر بها هي تلك الهزة التي نستشعرها عندما نقف على عتبة الخفاء من باب الغيب، إنها النواة لمعرفة الحق في كل علم، وإنه لميت ذلك الذي يكون غريبًا عن هذا الشعور، فيعيش مغيبًا، من

غير أن تجد روعة التعجب إلى نفسه سبيلًا، إن جوهر الشعور الديني في صميمه هو أن نعلم بأن ذلك الذي لا سبيل إلى معرفة كنه ذاته موجود حقًّا ويتجلى بأسمى آيات الحكمة وأبهى أنوار الجمال التي لا تستطيع ملكاتنا العقلية المسكينة أن تدرك منها إلا صورها الجِبِلِّيَّة في السطح دون الدقائق في الأعماق».

... إنني لا أستطيع أن أتصور عالمًا حقًّا لا يدرك أن المبادئ الصحيحة لعالم الوجود مبنية على حكمة تجعلها مفهومة عند العقل. إن العلم بلا إيمان ليمشي مشية الأعرج، والإيمان بغير علم ليتلمس تلمس الأعمى».

نيوتن:

ويقول نيوتن، أمير الفلاسفة الطبيعيين، عن قانونه في الجذب العام: «إنه لأمر غير مفهوم حقًّا أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس وهي تؤثر على مادة أخرى مع أنه لا توجد بينها ثمة علاقة».

ويُعلق نيوتن على استغرابه قائلًا: هذا هو أسلوب الله في العمل، فالله يجري مشيئته في الكون بواسطة أسبابٍ وعلل.

ويقول مكتشف الجاذبية:

لا تشكوا في الخالق فإنه مما لا يعقل أن تكون المصادفات وحدها هي التي تقود هذا الوجود). نعم، لا يقود الكون بما فيه من نجوم سابحات وكواكب نيرات وكل ما فيه من بديع الصنع وباهر الآيات إلا الله تعالى موجد الوجود.

* * *

الفصل الرابع: وجود الله عند علماء الجيولوجيا

دونالد كار:

دونالد كار هو أستاذ للكيمياء الجيولوجية في جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية. وتتلخص- في رأيه- النقط التي تمس فيها دراسة الكيمياء الجيولوجية الفلسفة الدينية في النقطتين التاليتين:

الأولى: تحديد الوقت الذي بدأ فيه هذا الكون.

والثانية: اكتشاف النظام الدقيق الذي يسوده.

وأما عن النقطة الأولى فقد أمكن باستخدام العلاقات الإشعاعية تحديد عمر الأرض بنحو (٤٥٥٠) مليون سنة، كما تم تحديد عمر الكون كذلك بطريقة مختلفة، وما دام للكون عمر فهو ليس قديمًا إذن أو أزليًّا وإنما له لحظة بدأ فيها وقبلها لم يكن له وجود، ولو كان الكون أزليًّا قديمًا لما بقيت فيه أي عناصر إشعاعية، وهو ما يتفق والقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية تمامًا. وأما القول بأن هذا الكون كون دوري، بمعنى أنه ينكمش ثم يتمدد ثم ينكمش ثم يتمدد وهكذا، فإنه يظل- في الحقيقة- مجرد تخمين.

وأما عن النقطة الثانية، فإن مبدأ الانتظام ليعتبر من بديهيات علم الجيولوجيا، وينص هذا المبدأ على أن جميع العمليات الكيميائية الجيولوجية التي تعمل الآن كانت تعمل أيضًا فيما مضى. ومن ثم ففهمنا لهذه العمليات يعيننا

على تفسير التاريخ الجيولوجي؛ لأن انتظام الكون وعمل القوانين الطبيعية فيه ليعتبران أساس العلم الحديث.

وإن النظام الموجود في الكون والذي يعتبر ذا أهمية بالغة بالنسبة للمشتغلين بالعلوم يتفق مع ما تحدثنا به الكتب السماوية من أن الله هو خالق هذا الكون ومبدعه وهو الذي يمسكه بعنايته ويحفظه بقدرته، ولو كان الكون قائمًا على الفوضى لما كان هنالك معنى لما تذكره تلك الكتب من أن قدرة الله وإلوهيته تتجليان في كل شيءٍ منذ خلق الله هذا الكون وأبدعه. ولولا انتظام الكون ما كان لأي معجزة من معجزات الأنبياء والرسل معنى؛ لأن المعجزة تعني خرق الناموس والخروج على المألوف، ولا يمكن تقديرها وإدراك قيمتها إلا في كونٍ منظمٍ تُسيِّر ظواهره قوانين حاكمة وسننٍ ضابطة.

داوسن:

قال عالم الجيولوجيا «داوسن»: «إن الإيمان بسنن الله الكونية ضروري بالنسبة للمعنى الفلسفي لصلاة الإنسان ودعائه، فلو كان الكون قائمًا على الفوضى لما كان هنالك معنى لذلك، أما إذا اعتقد الإنسان أن هذا الكون يقع تحت سيطرة إله مشرع حكيم- لا مجرد مدير لجهاز آلي- فإننا نستطيع أن نتقدم إليه بالصلاة والدعاء، لا لنغير خطته العظمى وسننه، ولكن لكي يدبر بحكمته الواسعة ومحبته السابغة الأقدار لنا بحيث تفي بحاجاتنا».

تمامًا مثلما نتوجه نحن المسلمون بالـدعاء إلى الله تعـالى فنقـول: اللهـم إنـا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه، اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير...

ثم يستطرد كار قائلًا: «إن الكيمياء الجيولوجيـة تعلمنـا أن ننظـر إلى الكـون نظرة واسعة شاملة في الزمـان والمكـان. فنفكـر في الزمـان عـلى أسـاس بلايـين السنين، وفي المكان على مستوى الوجود كله، ومثـل هـذه النظـرة تجعلنـا نـزداد تقديرًا لعظمة الله وجلاله، أما غير المؤمنين فسوف يمتلئـون رعبًـا ورهبـة وقـد يضطرون- في النهاية- إلى أن يسلموا بأن السموات والأرض وما بينهما تشهدان على وجود خالقٍ عظيم.

ويتجلى التوافق بين العلوم والدين في ذلك النشيد الـديني، الـذي ربـما كـان تأليفه من وحي الكشوفات العلمية الحديثة: إلهي العظيم، عنـدما أنظـر بعجـبٍ ودهشةٍ ورهبةٍ وخشيةٍ إلى كل العوالم التي صنعتها يداك، أبصر النجـوم وأسـمع قصف الرعد وزمجرة الريح، عندئـذ تـتجلى لي قوتـك في كـل الأرجـاء، فتغنـي روحي ويهتف قلبي. إلهي ما أروعك، إلهي ما أبدعك، إلهي ما أعظمك».

واين أولت:

«واين أولت» أستاذ الكيمياء الجيولوجية بنيويورك بالولايات المتحدة؛ يقول أولت: إن الله- كما نعرفه- ليس مـادة ولا طاقـة، ولا يجـب أن يكـون، بحيـث يمكن إخضاعه لحكم التجربة، ومن ثم فالتصديق بوجود الله يقوم عـلى أسـاس الإيمان المستمد من الـدلائل العقليـة التـي تـشير إلى ضرورة وجـود سـبب أول

وقديم لخلق هذا الكون. والإيمان بالله يعد لازمًا لاكتمال وجود الإنسان وإعطاء حياته معنى، والاعتقاد بوجود إله خالق لكل الأشياء يعطينا تفسيرًا بسيطًا وصحيحًا عن النشأة والإبداع والكلمة ويساعدنا على تفسير جميع ما يحدث من ظواهر، أما النظريات التي ترمي إلى تفسير الكون تفسيرًا ميكانيكيًّا فإنها تعجز عن تفسير كيفية بدئه من جهة، كما أنها ترجع ما حدث من الظواهر التالية بعد هذا البدء إلى فكرة المصادفة، والمصادفة هنا يستعاض بها عن فكرة وجود الله بقصد إكمال الصورة، ولكن حتى بغض النظر عن الاعتبارات الدينية نجد فكرة وجود الله هي الأقرب إلى العقل من فكرة المصادفة، ذلك أن النظام الدقيق والبديع الذي يسود الكون كله إنما يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم وليس على وجود مصادفة عمياء تتخبط خبط عشواء.

وإذا كان هناك كثيرون ممن يرضون فكرة ما وراء الطبيعة أو ما فوقها، فهم يتحدثون في الوقت نفسه عن ظواهر لا يعلمون عن كنهها شيئًا، ونحن نسألهم: هل تم مثلًا التوصل إلى جهاز الرادار عن طريق المصادفة أم عن طريق الاختراع وما يقتضيه من عوامل القصد والتصميم والتنفيذ؟

وكيف توصل الوطواط إلى تكوين جهاز الرادار الموجود فيه والذي لا يحتاج منه إلى انتباه أو إصلاح كما يستطيع أن يورثه لذريته عبر الأجيال، عن طريق المصادفة أم عن طريق الاختراع؟

إن العقل يرفض فكر المصادفة في الحالين، ومن ثم فإن المشتغل بالعلوم- والذي يعلم علم ذلك اليقين- هو أول من يجب عليه التسليم بوجود عقل مبدع لا حدود لعلمه ولا لقدرته، موجود في كل مكان يحيط مخلوقاته برعايته وعنايته مهما استدقت تلك المخلوقات أو عظمت.

وهنالك ظواهر أخرى عديدة مما لا يمكن تفسيرها أو إدراك معناها إلا إذا سلمنا بوجود الله، ومن ذلك مثلًا:

ذلك الفراغ الكوني الرهيب وما تسبح فيه من نجوم وكواكب مما لا يقع تحت عدٍ أو حصر، وقابلية المادة مهما كان طبيعتها للانقسام إلى لَبِناتٍ أساسية بالغة الصغر، والتماثل الذي نشاهده بين مختلف الكائنات الحية مع اتصاف كل فرد منها بكل ما يميزه عن غيره، والهوة السحيقة التي تفصل بين الإنسان وما دونه من مخلوقات.

إن الإنسان يجب أن يؤمن بالله، بل إنه في حاجة ماسة لذلك، والإيمان الذي نقصده ليس الإيمان الأعمى بل الإيمان البصير الذي يقوم على التدبر والتعقل، وقد آمن بالله- بالفعل- أناسٌ كُثر فذاقوا حلاوة إيمانهم في نفوسهم بل وفي عالمهم المادي- مجال دراسة علومهم- وعندما يؤمن المشتغل بدراسة العلوم بالله فإن دراسته مهما كان اتجاهها سوف تعمق ما لديه من تصديقٍ وإيمان.

الله في عيون علماء علم الحياة..

وولتر لاميرتس:

وهو أستاذ علم الوراثة بجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس بالولايات المتحدة، يقول: «لقد كان يخيل لي دائمًا كأنما توجد قوة أخرى في هذا الكون تعمل في اتجاهٍ معاكس وتمنع أو تحول على الأقل دون استفادة الإنسان الاستفادة القصوى مما في بيئته من نباتٍ وحيوان، وتوضيحًا لذلك يضرب لنا لاميرتس الأمثال:

فمثله الأول أن هناك كثيرًا من النمل وقليلًا من النحل مما ينجم عنه ضعف في حاصلاتنا الزراعية، ومثله الثاني أن التربة يتناقص خصبها تدريجيًّا ومع ذلك فهي تنتج عشبًا كثيرًا ضارًّا.

ويتساءل: لماذا يحدث كل ذلك؟

ويجيب قائلًا: إن الطبيعة لم تعطنا تفسيرًا، ولكنني عثرت عليه في الكتاب المقدس، فغضب الله ينزل بالتربة بسبب أخطاء الناس، ومع ذلك فلا تزال هناك ثمة بقية من خير تسمح بعطاء الله وفضله.

ويستطرد لاميرتس: وتلك كانت فلسفتي حتى دخلت الجامعة ودرست نظرية التطور العضوي، وهنا مرت بي سنوات من الصراع العقلي بيني وبين نفسي من جهة وبيني وبين زملائي من جهةٍ أخرى، ولكن سرعان ما أتضح لي كثير من الحقائق، فعلم الوراثة مثلًا لم يقدم لنا دليلًا على صحة الفرضين الأساسيين اللذين أقام عليهما تشارلس داروين نظريته في نشأة الأنواع وهما:

١ - أن العضويات الصغيرة في كل جيل من الأجيال تنزع دائمًا إلى أن تختلف اختلافات طفيفة عن آبائها في جميع الاتجاهات الممكنة.

٢ - أن التغيرات المفيدة من تلك التغيرات الطفيفة، تورث في الأجيال التالية وتتراكم نتائجها حتى تنتج عنها تغيرات جسيمة.

وبتعمقي في دراسة تلك النظرية أدركت عجزها عن تفسير كل تلك الاختلافات العديدة التي نشهدها في عالم الأحياء، والتي تشير - في مجموعها - إلى وجود خالقٍ حكيمٍ هو الذي وراء حدوث كل تلك الاختلافات.

نعم إن الطبيعة تكشف لنا عن قدرة الخالق ونظامه في خلقه رغم أنها قد لا تستطيع أن تكشف لنا عن بعض حكمته وقصده. وكما يقول أحد الحكماء: إننا نبصر اليوم الحقائق من وراء حجاب، وغدًا عندما يكشف عنها الغطاء سوف نراها سافرة بكل الجلاء والوضوح. إننا لا نعلم اليوم إلا قليلًا ولكن غدًا سوف ينكشف لنا علم ما لم نكن نعلم.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾[1]، و﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[2].

---

(١) ق: ٢٢.

(٢) الإسراء: ٨٥.

رسل مكسنر:

وهو أستاذ علم الحيـوان بكليـة هـويتن وعـضو الجمعيـة العلميـة بـإلينوي بالولايات المتحدة .

يقول: يعرف الطفل ربه لأول مرة عن طريق والديه، فهـما يـستخدمان لفـظ الجلالة بكل تقديس، وبذلك يتعلم الصغير منذ نعومـة أظفـاره أن يلجـأ إلى الله مباشرة وأن يسأله أن يقضي له حوائجه بالطريقة نفسها التي يلجأ بهـا إلى والـده، ويكون الطفل في هذه المرحلة راضيًا ومطمئنًّا إلى ربه الذي لا يراه.

ثم يكبر الطفل ويقرأ في الكتب قصص المـؤمنين الـذين سـاروا في طريـق الله فكان في ذلك لهم النجاة كل النجاة من الوحوش وضرب السيوف وحرق النـار كما كان لهم قوةً من بعد ضعف ونـصرة في مواقـف الـشدة، وكـم يـستولي عـلى الطفل الإعجاب ببطولة هؤلاء المؤمنين وكم تتوق نفسه البريئة إلى الاقتداء بهـم والتأسي بسيرتهم، ويشعر أن رفاقًا من الماضي يشدون أزره ويقوون عزيمتـه بـما يبثون في داخله من معانٍ سامية ويغرسون فيه من قيمٍ نبيلة.

غير أن دراسة ذلك الطفل فيما بعد في مراحل التعليم العام تجذبـه في اتجـاهين متعارضين: فهي من جهة تقوي إيمانه بالله، ومن جهـةٍ أخـرى تـضعف إيمانـه، وهنا تستبد به الحيرة ليتساءل: تُرى هل يُوجد إله حقيقةً؟ وإذا كان موجـودًا فـما كنيته وما صورته؟ وهنا يقرأ في الكتب المقدسة فيجد فيها أن الإنـسان يـستطيع أن يصل إلى الله مستخدمًا عقله، فَيُجِدُّ في هذا السبيل، وقد يتحول في النهاية من الحائر الصغير إلى المؤمن الكبير فتتوازن شخصيته بانسجام روحه مع عقله.

وإن عملي وثيق الصلة بالكائنات الحية، ومن ثم بالإله الذي خلقها، وليس من المنطق في شيء أن نفصل بين الاثنين. انظر إلى الأنواع العديدة من هذه الكائنات، من نباتٍ وحيوان، والتي يبلغ عددها الملايين، وأنا أعني هنا الأنواع لا الأفراد: هل هنالك نظامٌ تخضع له هذه الأنواع على تباينها واختلافها؟

أقول نعم هنالك نظام، فكل نوع من هذه الأنواع ينقسم إلى فصائل، والفصائل إلى رتب، والرتب إلى تحت رتب وهكذا... ولكننا مهما قسمناها تظل هنالك صفات مشتركة بين جميع الأنواع والفصائل والرتب وتحت الرتب وأخرى بين جميع الأفراد التي تنتسب إلى كل نوع أو فصيلة أو رتبة أو تحت رتبة، فهي تشترك جميعًا في البروتوبلازم مادة حياتها، ويعد هذا في ذاته دليلًا على أن وراء كل ذلك التنظيم خالقًا مدبرًا هو الله بدلًا من إرجاعه إلى فكرة المصادفة التي هي دائمًا ضد النظام.

ونحن عندما نقرأ في الكتب المقدسة أن الله تعالى هو خالق الإنسان والحيوان والنبات وخالق كل شيء فعلينا أن نثق بهذا وأن نصدقه؛ لأن كل ما في الطبيعة يتفق معه ويؤيده، ومع أن الكتب المقدسة ليست من كتب العلوم، إلا أنها تمس المبادئ الأساسية للعلوم، والحقيقة التي لا أشك فيها، والتي تستطيع النظريات المادية نقضها هي أن الله الذي يصل إليه الإنسان بدراسته للكون الذي يعيش فيه هو نفس الإله الذي تتحدث عنه تلك الكتب السماوية، إلى هنا انتهى كلامه وهو كما نرى كلام منطقي تمامًا ومقنع ولا يصدر إلا عن قلبٍ مؤمنٍ بخالقه.

* * *

الفصل الخامس: الله في فكر المتفلسفين

كان الله هو الشاغل الأول عند من آمنوا به وعند الذين أنكروه، وكان موضوع بحث الفلاسفة دائمًا سواء أرادوا الاستدلال على الإيمان بالله أو على ضده، ولم يختلف حال الفيلسوف عن حال البدائي إلا في الوسائل. كان الفيلسوف يتلمس الطريق بعقله والبدائي بوجدانه، ولكن الله كان مطلوب الاثنين على الدوام.

* * *

وجود الله في فكر الفلاسفة

أ- من الفلاسفة غير المسلمين:

إكزنوفنس:

أحد فلاسفة اليونان الأوائل، الذي سما على أهل عصره، فنبذ أساطيرهم القائلة بفكرة التجسد البشري للإله، وسخر من آلهتهم التي تأكل وتشرب وتلد وتموت.

يقول: إن الناس هم الذين اخترعوا الآلهة وصوروها بمثل هيئاتهم.

ولو كانت الثيران أو الأُسُودُ أو حتى الحمير تعرف الكلام وتعرف التصوير لرسم كل منهم الإله على شاكلته! كلا ثم كلا، فليس هناك سوى إله واحدٌ، هو

أرفع الموجودات، وليس مركبًا على هيئتنا ولا يفكر مثل تفكيرنا، بل كلـه سـمع وكله بصر وكله فكر.

وأما إدراك كنه هذا الإلـه الواحـد المتفـرد في كـل صـفاته فـيراه إكزنـوفنس مستحيلًا على عقولنا. ويقول في ذلك كلمته التي قفز بهـا في تـاريخ الميتافيزيقيـا ألفي سنة إلى الأمام: «ما من إنـسان يعـرف الله حـق المعرفـة، حتـى لـو شـاءت المصادفة لإنسان أن يقول في وصف الله الحق كل الحق، فهو نفسه لن يعرف أنـه يقـول الحق» انتهى كلامه، فأنعم به من كلام وأكرم بقائله من فيلسوفٍ مؤمنٍ مستنير.

أناكساغورس...

الذي فند أراء ديموقريطس في الضرورة العمياء وسفهها.

وما هي هذه الضرورة؟ الضرورة العمياء عند ديموقريطس هـي التـي تـدفع الذرات إلى الحركة والتلاقي والتشابك والتمازج ومن ثم تكوين هذا الكون بـما فيه من جماد ونبات وحيوان وإنسان، وحتى الأرواح الإلهية فهي- عنده- مركبة من ذرات تسيرها تلك الضرورة العمياء!.

وماذا قال أناكساغورس؟ قال: من المستحيل على قـوة عميـاء أن تُبـدع هـذا النظام وهذا الجمال اللذين يتجليان في هذا الكـون؛ لأن القـوة العميـاء لا تُنـتج سوى الفوضى. فالذي يحرك المادة إنما هو عقل رشـيد بـصير حكـيم... وهكـذا يتكلم أناكـساغورس كـأعظم المـؤمنين بـل يعـد أول مـن فـتح بـاب الفلـسفة

الروحية، وقال قولًا راجحًا، وهو ما جعل أرسطو يقول عنه: «إنه الوحيد الذي احتفظ برشده أمام هذيان أسلافه».

أفلاطون:

وقد جاء بنظريته المعروفة بنظرية الـمُثُل.

فماذا تعرف عن هذه النظرية؟

يؤمن أفلاطون في نظريته بعقلٍ كلي أزلي أبدي هو عقل الله تستقر فيه الصور الأصلية لكل المخلوقات (المُثُل) وتقوم الملائكة - أنصاف الأرباب - بتخليق هذه الصور في الواقع وذلك بتلبيسها بقوالب مادية تحاكيها، ونظرًا لنقص الملائكة تأتي تلك المخلوقات ناقصة كما نراها في عالمنا، ويتفضل الله بكرمه فيمنح هذه المخلوقات الناقصة زمنًا تحياه، وهذا الزمن هو الآخر محاكاة للأبد الإلهي، محاكاة ناقصة تلائم المخلوقات الناقصة، ولكن عقل الإنسان عن طريق صلته بعقل الله خالقه يستطيع أن يكتشف الأصول الكاملة المجردة لتلك المخلوقات الفانية كما هي في عقل الله، ومن ثم بإمكانه معرفة المثال الكامل لكل شيء كما يجب أن يكون.

وبقدر الصلة بين الإنسان وربه يكون مصير الإنسان بعد الموت خلودًا في عالم المثل في سعادة أبدية مع العقل الكلي، أو هبوطًا إلى الدرك الأسفل الذي يبعده عن عظمة ذلك العالم ويعد ذلك محاولة مشكورة من أفلاطون.

ثم يقول: هذا العالم يظهر لنا على النحو الذي لم يترك فيه شيء للمصادفة بـل كل جزء من أجزائه متجه نحو غايته.

أرسطو:

يؤمن أرسطو بإلهٍ أزلي أبدي كذلك، واحدٌ لا يقبـل التعـدد، جـوهر فـرد لا يتجزأ ولا يتبعض كما لا ينحل ولا يتركب، وهذا الإله الواحد هو المحرك الأول للوجود فهو الذي دفعه إلى حركـة الابتـداء، ومـن تلـك اللحظـة والوجـود لا يعرف السكون.

والله عند أرسطو لا يفكر في الوجود الذي خلقه؛ لأنه أتفه من أن يفكر فيه.

ولا يفكر الله إلا في ذاته لأنها أكمل الموجودات، ولا يسعى الخـالق إلى خلقـه وإنما هم الذين يسعون إليه سعي المحتاج للمستغني، وكل حركة الوجود عبـارة عن هذا السعي نحو الله، فهي حركـة النـاقص نحـو الكامـل، فلقـد بـث الله في مخلوقاته ما جعلها في شوقٍ وتوقٍ وحركة دائبة ودائمة تجاهه وهذا كلام ينم عن فهمٍ كبيرٍ وإيمان عميق.

الفيلسوف نيوتن:

كتب بحثًا يستدل فيه على وجود الخـالق يقـول فيـه: كيـف تكونـت أجـسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة؟ ولأي المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة؟ هل يعقل أن تصنع العين المبصرة بـدون علـم بأصـول الإبـصار ونواميـسه، والأذن

بدون إلمام بقوانين الصوت؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها؟ ومن أين جاء هذا الإلهام الفطري في نفوس الحيوانات؟ إلى أن قال: وهذه الكائنات كلها في قيامها على الأشكال ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية حي حكيم موجود في كل مكان يرى حقيقة كل شيء ويدركه؟!

* * *

ب- الله عند من آمنوا به من الفلاسفة:

الرازي:

كان الرازي من أصدق المؤمنين بالله.

وما دليلك على صدق إيمان الرازي؟

ولو لم يكن لدينا دليل على صدق إيمان الرازي سوى قوله: «إن وجود العقل في بعض الكائنات الحية وقدرتها على إتقان الصنعة يدل على وجود خالقٍ أتقن كل شيءٍ خلقه» لكفانا.

الفارابي:

وضع الفارابي برهانه على وجود الله فقال: إن الموجودات على ضربين أحدهما ممكن الوجود، والثاني واجب الوجود، وممكن الوجود إذا فرض أنه موجود، لم يلزم عنه محال، وليس بغنيٍّ بوجوده عن علته، وإذا وجد صار واجب الوجود بغيره لا بذاته، أما واجب الوجود فمتى فرض أنه غير موجود لزم عنه

محال، ولا علة لوجوده، ولا يجوز كون وجوده بغيره، والأشياء الممكنة لا يجوز أن تمر بلا نهاية في كونها علَّة ومعلولًا، بل لابد من انتهائها إلى شيء واجب، هو الموجود الأول، والسبب في وجود كل الأشياء، وهو الله تعالى، أليس هذا منطق يدل على أعلى مراتب اليقين؟!

ابن سينا:

ولنستمع إلى ابن سينا في برهانه على وجود الله. يقول: إنه لا ينبغي أن نلتمس البرهان على إثبات وجود الله بشيء من مخلوقاته، بل ينبغي أن نستنبط من إمكان ما هو موجود، وما يجوز في العقل وجوده- موجودًا أولًا واجب الوجود. وهذا العالم ممكن، ومن ثم يحتاج إلى علة تخرجه للوجود؛ لأن وجوده ليس من ذاته؛ وبهذا لا نحتاج في إثبات وجود الأول إلى تأمل بغير نفس الموجود، من غير أن نحتاج للاستدلال عليه بشيء من مخلوقاته، وإن كان ذلك دليلًا عليه، إلا أن الاستدلال الأول أوثق وأشرف.

ابن مسكويه:

يعترف ابن مسكويه بأن الكون مخلوق، وأن الله تعالى خلقه من العدم، حيث يقول: إن الصانع جل جلاله جلي غامض. أما أنه جلي فمن قِبَل أنه الحق والحق نيِّرٌ، وأما أنه غامض فلضعف عقولنا. وأن الله الأزلي الأبدي قد أبدع الأشياء كلها من لا شيء؛ إذ لا معنى للإبداع إن كان عن شيء موجود.

* * *

الفصل السادس: وجود الله عند الصحابة والفقهاء والتابعين

لقد عرف اللهَ سبحانه وتعالى العارفون ووصفوه بما يليق بمقامه الأسمى وسلطانه الأعلى وجلاله الذي لا يشبهه ولا يدانيه جلال.

الله على لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ:

لنستمع إلى الوصف المبين لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب- في كتابه الأشهر نهج البلاغة- لله سبحانه وتعالى، يقول ﷺ: «الله هو الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر، بأوَّليته وجب ألا أول له، وبآخريته وجب ألا آخر له، المتجلي لخلقه بخلقه، والظاهر لقلوبهم بحجته، خلق الخلق من غير روية، إذ كانت الروايات لا تليق إلا بذوي الضمائر، وليس بذي ضميرٍ في نفسه، خرق علمه باطن غيب السترات، وأحاط بغموض عقائد السريرات، الباطن لكل سريرة، العالم بما تكنُّ الصدور وما تخون العيون، الدال على وجوده بخلقه وبمحدث خلقه على أزليته، وباشتباههم على ألا شبه له، لا تستلمه المشاعر ولا تحجبه السواتر، لافتراق الصانع والمصنوع، والحاد والمحدود، والرب والمربوب، الأحد لا بتأويل عدد، والخالق لا بمعنى حركةٍ ونصب، والسميع لا بأداة، والبصير لا بتفريق آلة، والشاهد لا بمماسة، والبائن لا بتراخي مسافة، والظاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة.

بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه.

من وصفه فقد حدَّه ومن حدَّه فقد عدَّه، ومن عدَّه فقد أبطل أزله، ومن قال: كيف؟ فقد استوصفه، ومن قال: أين؟ فقد حيَّزه.

عالم إذ لا معلوم، ورب إذ لا مربوب، وقادر إذ لا مقدور، انحسرت الأوصاف عن كنه معرفته، وردعت عظمته العقول فلم تجد مساغًا إلى بلوغ غاية ملكوته.

أحق وأبين مما ترى العيون، لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبهًا، ولم تقع عليه الأوهام بتقدير فيكون ممثلًا، خلق على غير تمثيل ولا مشورة مشير، ولا معونة معين، فتم خلقه بأمره وأذعن لطاعته، فأجاب ولم يدافع وانقاد ولم ينازع»...

ألا ما أروع بيان سيدنا علي، وألا ما أنصع بلاغته، لقد أجلى معنًى وأجزل لفظًا.

وقد سأل سائل عليًّا ﷺ: «هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟»

فأجاب علي: «أفأعبد من لا أرى؟» فقال السائل: وكيف تراه؟! فأجاب علي: «لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان،... قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد منها... غير مباين،... متكلم لا بروية،... مريد لا بهمة،... صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير لا يوصف

بالجفاء،... بصير لا يوصف بالحاسة،... رحيم لا يوصف بالرقة...». هذا غيض من فيض... وبعض من أوصاف من جلَّ عن الوصف.

من روائع الإمام أبي حنيفة

احتج طائفة من الملاحدة الذين ينكرون وجود الله وقالوا للإمام أبي حنيفة: "ما دليلك على وجود خالق صانع لهذا الكون ؟

فقال لهم: "دعوني فخاطري مشغول، لأني رأيت أمرًا عجبًا.

قالوا: وما هو ؟

قال: بلغني أن في نهر دجلة سفينة عظيمة مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة، وهي ذاهبة وراجعة من غير أحد يحركها ولا يقوم عليها. وأرى الأمتعة تصعد وتنزل من على السفينة من غير أن يحملها وينزلها أحد .

فقالوا له: أمجنون أنت ؟

قال: ولماذا ؟

قالوا: إن هذا لا يصدقه عاقل، ولا يمكن أن يكون.

قال: فكيف صدقت عقولكم أن هذا العالم بما فيه من الأنواع والأصناف والحوادث العجيبة، وهذا الفلك الدوار السيار يجري، وتحدث هذه الحوادث بغير محدث، وتتحرك بغير محرك، وتوجد في الكون بغير موجد وخالق؟

فرجعوا وعلموا أنهم على باطل.

من روائع الإمام الشافعي

وقد سئل الشافعي ﷺ: ما دليلك على وجود الصانع؟ فقال: (ورقة التوت!... طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد، ولكن تأكلها دودة القز فيخرج منها الحرير (لباس وزينة) والنحل فيخرج منها العسل (غذاء ودواء وشفاء) والشاة فتربي اللحم وتخرج اللبن، وتأكلها الظباء فتعذيها وينعقد في نوافجها[1] المسك، فمن الذي جعل هذه الأشياء متنوعة الإفرازات والغذاء واحد؟ إنه الله تعالى.

ابن الوزير

قال ابن الوزير رحمه الله: يقول الله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾[2] "هذه حجة أجمع عليها الكفرة مع المسلمين، فإن الجميع اتفقوا على أن العالم في الهواء لا يكون إلا بممسك، وأن هذا الإمساك الدائم المتقن لا يكون من غير رب عظيم قدير عليم مدبر حكيم".

---

(١) النافجة: وعاء المسك في جسم الظبي والجمع: نوافج (المعجم الوسيط مادة نفجَ)

(٢) سورة الرعد آية: ٢.

ومن الأوصاف التي تكررت كثيرًا في القرآن على أنها من الدلائل الكبرى على ربوبيته سبحانه وعلى البعث كذلك إحياء الأرض بعد موتها، وجعلها صالحة للإنبات، وفتق السماء بالماء، وشق الأرض بأنواع الزرع والنبات، قال ﷻ:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

الإمام القاسمي

يقول الإمام القاسمي رحمه الله تعالى: «ومن أظهر البراهين على وجوده تعالى: الحياة على الأرض، سواء نباتية أو حيوانية، فإن الحي لا يتولد إلا من حي، وبه يستدل على نفي القول الذاتي: يعني أن الشيء يخلق نفسه، وهو زعم تولد الحي من المادة، وذلك لأن المادة خالية من الحياة ساكنة خاضعة للنظام الذي وضعه لها خالقها، ويستحيل أن تولد حياة في ذاتها أو غيرها، لاسيما العقل الإنساني بجميع قواه وغرائزه، فإنه لابد له من خالق عالم حكيم، إذ المواد لا تولد عقلًا، ولا تستطيع أن تخرج كائنًا متصفًا بأوصاف مباينة لنظام المادة».

---

(١) سورة يس آية: ٣٣-٣٦.

الإمام الخطابي

ما أجمل ما قاله الإمام الخطابي رحمه الله:

«إنك إذا تأملت هيئة هذا العالم ببصرك، واعتبرتها بفكرك، وجدته كالبيت المبني المعد فيه ما يحتاج إليه ساكنه، من آلة وعتاد، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدوة كالبساط، والنجوم مجموعة والجواهر مخزونة كالذخائر، وأنواع النبات مهيئة للمطاعم والملابس والمشارب، وأنواع الحيوان مسخرة للراكب مستعملة في المرافق، والإنسان كالمالك للبيت المخول فيه، وفي هذا كله دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام، وأن له صانعًا حكيمًا تام القدرة بالغ الحكمة».

* * *

فهرس